عادل الأسطة

خربشات ضمير المخاطب

يقدم لـها الكاتب ويعلق عليها ويكتب ما سمعه منه منها

نابلس ١٩٩٧

كل صباح، يجلس على كرسيه، وراء طاولته البيضاء، ويمسك بقلم Pilot-5 ذي اللون الازرق، أو بقلم Pilot-7 ذي اللون الكحلي أو اللون الأحمر أو اللون الأسود أو اللون الأخضر ويخربش قليلاً. ولكنه، وللأمانة، يتساءل قبل أن يمسك بالقلم عن حالته النفسية، وعن اختيار القلم الذي يرغب في أن يكتب فيه ودلالة لونه. مثلا، يقرر صباحاً ما ان يمارس تمارين رياضية، فيتكاسل ويفضل أن يضع القهوة أولا، وحين يشعل الغاز يعود الى كرسيه ليواصل الكتابة، ويتوقف عنها لأن الماء في الغلاية أصيب بحالة من الضجر. يفكر في أمر القهوة، هذه الساحرة التي ما اعتاد شربها حتى بلغ الثلاثين، ومنذ ذلك الزمن أصبح مدمناً عليها ادمانه على الكتابة هذه الأيام.

ويربط ما بين القهوة والكتابة، وينظر الى المقعد الذي أمامه فيفضل الجلوس عليه ليستمتع بأشعة الشمس في فصل الشتاء، ويشرب القهوة بهدوء يغبطُ نفسه عليه، ويبدو هادئاً جداً، كأنما القهوة التي تثير الأعصاب تفعل فيه، في تلك اللحظات، العكس. ثمة هدوء يحتار هو شخصيا من اين يأتيه. هل هو المنزل الهادىء الذي ينفق فيه ساعات طويلة يقرأ كتاباً أو يصغي الى نشرة أخبار، أو يتأمل في هذا الكون، أو البعد عن ثرثرات الناس الفارغة غالبا، ولكن المفيدة له باستمرار؟

وتسحره القهوة والشمس وأغصان شجرة الجوز العارية من الاوراق. "كم يبدو العراء جميلاً؟" يهمس، ولا يرى فيه - أي في العراء- منقصَةً. يقول : "هكذا خلقنا الله، ونحن الذين خالفنا الطبيعة، فسترنا ما لم يكن عيباً، وجعلنا البراءة عيباً. ويضيف: "لقد بدأنا منذ زمن، خلافاً للحيوانات، نخالف سنة الطبيعة التي منحتنا الهدوء والجمال والبساطة، حتى كدنا ندمر هذا الكون الجميل". ويرتشف القهوة، ويمعن، من جديد، النظر في الشجرة ذات الأوراق المتساقطة ويقول: أحقا هي الأوراق المتساقطة أم انها الرغبة في التجديد والتبديل؟ ويفكر في أن يكتب مقالاً يطلب فيه من الكتاب والناس ألا يلصقوا هذه الصفة بأوراق الأشجار، فلا

الأوراق تساقطت بمحض ارادتها، ولا الشجرة أسقطتها. ثمة ملابس ارتدتها الشجرة فصلا كاملاً حتى بليت كما تَبلى أجسادُنا، وأرادت الشجرة أن تغتسل، وأن يبصرها الآخرون كما خلقها الله. ” كم هو جميلٌ منظر تلك الشجرة الفاتنة، بلا أوراق! كم هو جميل أحياناً! تبدو التفاصيلُ واضحةً. شجرة فارعة وأغصان نظيفة، وبهاءٌ ما بَعدَهُ بهاء، تماما كما خلق الله الانسان قبل ان يشوه هذا نفسه.

ويرتشفُ القهوة من جديد. يشعل صوبة الغاز ويسخن الماء ليغتسل، وليمارس عادة الكتابة، وهو يدخل حالة من البهاء. يفكر في أمر العلاقة ما بين القلم والورقة. يكتب بهدوء، على غير عادته حين يكتب، وهو نزقٌ. يضع الفاصلة في مكانها، والنقطة في مكانها أيضاً، ويسائل نفسه عن دلالة اللون، غير أنه لا يتفق وتأويلات الآخرين الذين ينظرون الى أوراقه ليفسروا اتجاهه السياسي أو الفكري من خلال اللون. فهو مثلا، يرى انّ العلاقة بين الورقة والقلم علاقة جنسية، كلما ارتاح حامل القلم بدا الخط جميلاً جداً، ويكون الخط أجمل كلما كانت الورقة ناعمة الملمس. وهو يفضل أن يكتب على ورق معين هو ذلك الذي تمنحه وكالة الغوث لموظفيها، ذلك الورق المستقل الذي كان، من قبل، يحصل عليه باستبداله من مدير مدرسته، ومن بعد، بشرائه من موظف يسرق الأوراق ليبيعها، وليتهمه هذا الموظف بالسرقة، غير أنه أخذ يفكر في أمر الموظف وفي أمره ايضا، ويتساءل ان كان يسرق وهو يشتري ورقاً مسروقاً. انه يرتاح للّون الأحمر، لا لأنه يساري، وانما لجمال اللون الأحمر على الورقة. كم يبدو، يقول، اللون الأحمر آسراً، ولم يكن، من قبل، قد اقترب من اليسار لهذا السبب، وما عاد يورد هذا التبرير لجمال اللون الأحمر، فقد رأى في اليساريين الفلسطينيين ما لا يختلف، الا قليلاً جداً، عمّا يراه في غيرهم من ذوي الاتجاهات. وحين سأله، ذات نهار، صديقه عن رأيه هذا، وطلب منه أن يشرح له ذلك الكلام الذي لا يدخل رأس عاقل، أجابه: لقد جُبلنا جميعاً من طينة واحدة ثمُ بدأنا نفترق، ولكنّ

ذلك العرق الدساس يفعل فعله فينا، دون أن ندري، ولهذا قالت العرب، بعد تجربة، انّ العرق دسّاس، ولستُ أول من يكتشف هذا، فهذا اميل حبيبي شيخ اليساريين لأربعين عاما أو يزيد يكتشف هذا، ولستُ بمتتبعٍ لخطاه، فلقد كُنتُ أقولُ هذا منذ زَمَن، وأذكر أني اختلفت مع اميل في الندوة التي القاها في ١٩٨٧/٢/١٩ في مسرح الحكواتي في القدس، وقد شتم الحضور محمود درويش واتهموه بأنه، لأنه ترك الحزب وهاجر، برجوازي. ولا أقصد بالعرق الدم وانما اقصد البيئة والثقافة والتربية.

ويستمتع بالجلوس على الكنبة التي تسطع عليها الشمس الشتائية. ويفكر، أحياناً، في أمره وما حدث معه، أكان هذا نعمةً الهية أم نقمةً بشرية؟ ويتساءل: أكان من الممكن أن أنجز ما انجزه لو كان ثمة من يقيم معي في هذه الشقة؟ ويتهم نفسه بأنه أناني، لأنه لا يسأل، مثلا، عن طفلتيه، ولأنه لا يفكر في أن يشاركه في منزله العادي مخلوق آخر، ولكنه سرعان ما يتراجع عن فكرته فهو لم يطرد طفلتيه، ولم يقل لهما لا تعودا، ومن المؤكد أنه سيرحب بهما حين تعودان. وهو أحياناً لا يرغبُ في أن يتزوج، لأنه يقول: ثمة فلسطينيون كثيرون تزوجوا وأنجبوا ولم يعودوا يفكرون الا في أمر الأسرة. نظر مثلا الى اصحابه من الكتاب الذين بدأوا يكتبون يوم بدأ يكتب، وأحزنه ما آلوا اليه، ولا يدري ان كانوا مسرورين في حياتهم، وقلّب الأمر على وجوهه، كما يقلب النحويون المسألة على وجوهها، واكتشف أنّ من الضروري أن يظل عددٌ من الفلسطينيين غير متزوجين، وبخاصة من الكتاب، حتى يكتبوا لهذا الشعب وعنه. وسرعان ما عاد وربط بين القلم والورقة، وتساءل ان كانت حالة الشبق التي ألمت به في تلك اللحظة هي التي جعلته يربط ما بينهما.

وتبتعد الشمس عن الكنبة، لانحراف الأولى. ويُنهي شُرب قهوته ليضع من جديد، غيرها وليجلس على الكرسي أمام الطاولة حتى يدوّن أفكاره التي دارت في رأسه، وهو في الحمام أو وهو جالسٌ يبحلق في اشعة الشمس التي تبعث فيه الدفء.

وينظر في اوراقه التي يدّون عليها افكاره التي يرغب في الكتابة عنها، وهو يدونها لأنها تأتيه فجأة فيخاف أن تهرب منه، ولا يكتب من ثمّ المقالة الأسبوعية التي أخذ ينشرها، منذ ١٩٩٦/٩/١٢ في جريدة الأيام، وان كانت الجريدة احبطته قليلاً، لأنها لم تنشر له مقالة عنوانها " هو وزوجته ... وعلامة الاستفهام" وقد خلط فيها السياسي والاجتماعي، الشخصي والعام، وكتب فيها بصراحة عن شخصه فاورد اسمه وحمّل نفسه مسؤولية خراب العالم.

وللامانة، فانه يفكر منذ زمن بعيد بان يكتب نصوص هجاء في الأشخاص الذين يقابلهم، وكان قرر أن يبدأ هذا بهجاء نفسه كما فعل الحطيئة، وان كان لا يرغب في تقليد الآخرين. انه يعرف أن الناس هم الناس، وأن هذا العالم، على ما فيه من غرابة وتمايز وتعدد وتنوع، لا يعدم وجود بشر يتشابهون سلوكاً ونظرة الى الذات والى الآخرين. وقد كتب، ذات مرة، مُبدياً رأيه في أولئك الذين يتهمونه بأنه مغرور أو منفوخ، ثم سرعان ما مزّق ما كتب وأخذ يتابع كلامه وهو يتحدث، ويفكر في الوقت نفسه بما كان عليه من قبل:

كان، كما يقول هوعن ذاته، وكما يقول عنه الذين عرفوه، شاباً هادئاً وديعاً تأكل القطة عشاه، وان كان بين الفينة والفينة يثور ثورات يعجب هو نفسه منها كما يعجب أيضا منها الآخرون. وقد أورد هذا في إحدى قصصه التي كتبها ونشرها في مجموعته " وردة لروز ... وردة لفائزة"، والقصة هي قصة "ثلاثة أيام في حياة يوسف.م"، وفيها يذكر أن يوسف.م يبصق في اناء تلك الممرضة التي اعتدت على حقه، يوم قررت أن تملأ اناءها قبل انائه. وقد سِيق، كما ورد في القصة، الى مركز الشرطة وضرب فيه ضرباً غير مبرح، ويعترف لأصدقائه بأنه كان يوسف.م، وان كان أضاف الى هذه الشخصية صفات أخرى ما كانت فيه موجودة. ولم يكتب ما حدث معه في صيف ١٩٨٢، في جبل الحسين، ولم يورده في اية قصة من قصصه. كان الجو يومها

حاراً، وكانت القنابل تتساقط على بيروت، وقد ذهب الى مركز الحجز في جبل الحسين ليمكن أمه من العودة الى الضفة بتاريخ محدد غير ذلك التاريخ الذي اختارته أمّه ابتداءً.

ولمّا طلب الشرطي منه ورقة الحجز الأولى، ردّ عليه بأنها ليست معه، وأخبر الشرطي أن بامكانه ان يحتفظ بجواز السفر حتى يحضرها، وطلب منه، في المقابل، أن يدرج اسم المسافرة في القائمة التي أمامه، غير ان الشرطي اعتذر مصراً على احضار ورقة الحجز الأولى، فما كان منه الا أن ثار قائلاً: يهود هنا ويهودٌ هناك، ولم يدر كيف تجمع الشرطة حوله، الشرطة الذين أدخلوه الى الغرفة وبدأوا يعتدون عليه بالضرب، وحين أخذ يدافع عن نفسه سقط زر بدلة الشرطي، فازداد الأخير غضباً وامعاناً في الضرب والشتم. شتم عائلته كلها، وهدده بأنه سيزج به في السجن بتهمة شتم صاحب الجلالة الملك، ولولا تدخل أم حسن، وهي امرأة تقيم في مخيم عسكر الذي قطن فيه أربعة وعشرين عاماً، وقد كانت موجودة في مركز التسجيل، لولا تدخلها لفعل الشرطي ما هدّد به.

وخرج من المركز ليتابع أخبار قصف الطائرات الاسرائيلية مدينة بيروت، وكان يلعن فلسطين والأرض المقدسة كلها، وأخفى ما حدث معه عن أقاربه الذين يقع بيتهم قرب مركز التسجيل، ولم يمّر في ذلك اليوم عليهم مرور الكرام، كما كان يفعل من قبل، يوم كانت قريبته تصّرُ على أن يتناول معهم طعام الغداء.

" أنا انسانٌ مغرور" يخربش دائماً ويضيف : " أزعم أنني كاتب، ولا يعرف الآخرون ان ثمة نصا نشر لي في العالم العربي أو ترجم الى لغة عالمية " ويواصل : " ونحن كتاب الفراغ الذين كتبوا في مرحلة الاحتلال يوم أبعد الكتاب الكبار أو هاجروا أو صمتوا، ولو ظل هؤلاء هنا، وظلوا يكتبون لما قامت لكثير منّا قائمة، وأنا من ضمن نحن".

ويتأمل شقته جيداً. يضع القلم ليريح يده التي تعبت من الكتابة، ويتأمل خط الصفحة الأخيرة الذي بدا سيئا. يرتشف ما تبقى في كأس القهوة، وينظر الى لون الدهان الذي بدا باهتاً، فهو لم يطرش شقته منذ ستة عشر عاماً، على الرغم من أنه يملك النقود ويتساءل ان كان السبب في ذلك يعود الى البخل أم الى الكسل. ثمة بقع رطوبة هنا وهناك، وثمة جدران متشققة، وبلاط شبه خرب، وثمة ثلاجة صَدِئت منذ فترة، فقام هو نفسه بدهانها، وقد فسد لذلك منظرها وثمة بعض لوحات وصور له وللعائلة التي أقام عندها في (بون) في شتاء ١٩٩٠/١٩٩١. وثمة صورتان لطفلتيه ينظر اليهما بين الحين والآخر؛ " قلب قاس. قلبٌ حجر". يخاطب نفسه، ويخالف المثل الشعبي: " قلبي على ابني وقلب ابني حجر" ولا يعرف الآن كيف اصبحت طفلتاه؟ وكيف تتكلمان؟ وبم تحلمان؟ ولا يعرف ان كانتا تحبانه أو ان كانتا تشتاقان اليه. " سبع سنوات لم أراهما، سبع سنوات".

ويدون علىالورقة : " الوجه المشترك بين حكومات اسرائيل ومطلقتي". وقد قرر أن يكتب في هذا الموضوع، لكنه سرعان ما مزّق الورقة لأن المقال الذي كتبه لم ينشر. وكان يريد أن يكتب كتابة ساخرة طريفة. اراد، مثلا، أن يكتب كيف أصبحت القدس أبعد من (بون)، وكيف أن تركيا اقرب الى عمان من نابلس. ولم يكن قراراه هذا فجائيا أو دونما سبب، فهو منذ فترة طويلة لا يستطيع السفر الى القدس، ولقد أنفق شهراً كاملاً في (بون) وكان بامكانه ان يسافر الى بقاع العالم كلها، خلافا لمدينة القدس. ويذكر هذه المدينة التي يرتبط بها منذ طفولته، على الرغم من أنه زارها قبل عام ١٩٦٧ مرة أو مرتين لا أكثر ولا أقل، ولكنه أخذ يزورها، كل يوم خميس، منذ عام ١٩٧٩. كان يسير في شوارعها وتحديداً في شارع صلاح الدين وفي شوارع البلدة القديمة، وتمنى لو أنه كان من سكانها، لا لأن سكانها سيخصّون يوم القيامة، بما لا يخص به غيرهم، وانما لأنها تمكنهم من الاختلاط بالأجانب، وتساعدهم على تعلم الانجليزية،

هذه اللغة التي كان يقرأها جيداً ولا يستطيع أن يتكلمها مثله مثل أساتذة قسم اللغة العربية في جامعة مدينته، هؤلاء الذين لا يعرفون سوى العربية - ولا أقول يتقنونها- لأنها- أي العربية- لغة القرآن الكريم، ولأنها لذلك لغة مقدسة، وهم لا يحبون غير اللغات المقدسة والله أعلم.

أما لماذا تركيا؟ فلأن ابنتيه ارسلتا له صورهما، وكانتا في صيف ١٩٩٦ في رحلة انفقتا فيها بضعة أيام، ولعلّ مطلقته أرادت أن تنسيهما أباهما الذي يرسل لهما، كل شهر، بواسطة المحكمة، مبلغا من المال هو كل ما تبقى من صلة بينه وبينهما، وهي صلة تشبه صلة العالم الاسلامي بمدينة القدس، الصلة التي تدفع حكام الدول العربية لأن يتبرعوا لهذه المدينة حتى يؤكدوا حرصهم على المقدسات الاسلامية.

غير أنه سرعان ما دّون عبارة أخرى على وزن العبارة نفسها: "الوجه المشترك بين الحركتين الصهيونية والفلسطينية" وقلب الأمر على وجهه عدة مرات ثم تراجع لأنه لا يريد أن يقارن بين بشر حلّوا مشكلتهم على حساب بشرٍ آخرين يحاولون أن يحلوا مشكلتهم التي لم يكونوا أساساً المسؤولين الوحيدين عنها. ولكنه أخذ يربط بين عبارة ياسر عرفات التي كررها يوم الخروج من بيروت عام ١٩٨٢، وما زال يكررها حتى ألآن ١٩٩٦/١٢/٢٩، العبارة التي ذهب فيها الى انه سيصلي في القدس التي ستكون عاصمة الدولة الفلسطينية المستقلة، القدس التي رآها عرفات عام ١٩٨٢ أمام عينيه، وبين عبارة اليهود في المنفى "السنة القادمة في القدس". وتساءل: هل أصبحنا نستعير من اليهود مفرداتهم؟ وعقب: وليس عرفات أول من يفعل هذا فقد سبقته سميرة عزام فيما كتبته من قصص، وسار غسان كنفاني على خطاها، هذا الذي قرأ الأدب الصهيوني وردّ عليه، وصوّر حياة الفلسطينيين في المنفى كما صوّر الأدباء الصهيونيون اليهود في المنفى. وتساءل ان كان كنفاني قد أصبح صهيونياً أو ان أصبح عرفات جبهة شعبية.

" السنة القادمة سنصلي في القدس"، ولقد مرّت اربع عشرة سنة دون أن يتمكن السيد الذي وصل الى تل أبيب للتعزية باسحق رابين من الوصول الى القدس، فمتى سيصلي فيها؟ تساءل وأخذ يمعن النظر فيما جرى فلعلّ السيد صلى فيها، ذات عيد دون ان يكون المتسائل عرف هذا، فلعل ذاكرته بدأت تشيخ. وهو الآن يتساءل ان كان الاسرائيليون مكنوا الملك حسين، قصدا، من زيارة القدس ليصلي فيها قبل ان يدخلها عرفات ويصلي فيها.

" القدس. وهل تختلف القدس عن يافا وحيفا؟ " كتب على الورقة وهو يتذكر الجوائز التي بدأت تُشرع من وزارة الاعلام ومن عائلة المرحوم كامل العسلي لأجل المدينة. وحين كان يسير في شوارع يافا لم بشعر أنها مدينة غريبة. رأى ميناءها القديم وزار فرن دار ابي العافية، ولاحظ الساعة التي ذكرته بمنارة باب الساحة في نابلس، ومرّ بالقرب من بيت جده الذي سمع مؤخراً أنه هدم، ويوم زار تل أبيب في عام ١٩٨٧ - ولم يكن يومها يحتاج الى تصريح، اذ لم يكن الحل السلمي قد بدأ- شاهد بقايا جامع حسن بك، واستمع الى قصة هذا الجامع منذ تأسيسه. كان حسن بك ظالماً وفرض على الناس العقوبات وجمع منهم النقود، وبنى المسجد فيما بعد ليغفر الله له. فهل كانت النتيجة التي آل اليها المسجد مرتبطة بالسبب؟ وهل كان خراب يافا عائدا الى فجر أهلها، وأهله منهم؟ غير أن جدته التي أسهمت مع جده في تجميع مبلغ من المال لبناء البيت كانت تقية، خلافا لجدّة الذي كان يشتم الذات الالهية. وترحم على جدته صفية التي كانت تقرأ له، وهو صغير آيات قرآنية لتطرد الشيطان الذي يحل به أو المرض الذي يلم به، وما زال يحفظ عباراتها الناصة :" المرأة طبخت عدس والرجل طبخ عدس، فاخرجي يا نفس من جسد (   ) ابن (   ) كما خرجت المهرة من بطن الفرس"، ولا يعرف ان كان طبخ العدس، في العبارة يعود الى الفقر أم الى انسجام الايقاع وحب

العرب للسجع، ولا يرى، الآن، في المهرة شيطاناً كما النفس التي كانت جدته تطلب من الله أن يخرجها منه.

"وسوف يتهمك الاسرائيليون بأنك ترغب في تدمير دولة اسرائيل" أضاف وهو يقرأ العبارة السابقة، وتابع "وسوف يرى فيك الفلسطينيون مزايداً يرمي الى تدمير عملية السلام". وغضّ النظر عن هذه العبارات، وقرّر ألا يكتب في السياسة، لأن ما يكتبه مزعج، غير أنه تمنى لو لم تكن الانتفاضة ولولم يكن السلام، اذ كان بامكانه أن يسافر الى القدس ويافا وحيفا بدون تصريح. وكتب : ‘‘أنا انسان أناني‘‘ وتابع : ‘‘ لاحظوا بم يفكر؟ ‘‘ واضاف:‘‘ ألم يعد الأخ القائد الرمز وبعض الفلسطينيين الى فلسطين؟ وكيف يمكن أن يكون هذا تحقق لو لم تقم الانتفاضة، ولو لم يكن هناك مؤتمر سلام؟

ووضع القلم وأخذ ينظر الى مجموعة الأقلام على الطاولة التي يجلس على كرسيها والى مجموعة الأقلام التي كانت على الطاولة الأخرى. أقلام رصاص كثيرة، وأقلام حبر جاف من أنواع مختلفة، وأقلام حبر سائلة من نوع (بايلوت) ٥و٧، وزجاجة حبر ذات لون أحمر اشتراها ذات يوم قبل أن يُسرق منه قلم الباركر السائل الذي كان قد أهداه اياه خاله، وقد كتب فيه مقالة "شيطاني الأنثى"، فهل كان الذي سرق القلم يعتقد أن القلم مسحور ومسكون بالشياطين، كما ذهب، ذات مرة، جيمس جويس؟ وهل اعتقد أن صاحبه لن يكتب، بعد الآن، لأن الساحر في القلم هو الذي يكتب؟ وهو يرجح أن الذي سرقه من عرب الداخل، لا من أهل نابلس، وكان ينبغي، كما يقول، أن يسرقه نابلسي خوفا من أن يكتب حامله رواية عن " أهالي نابلس".

وفكر قبل أن يبدأ في كتابة أفكاره الطائرة وهمومه اليومية في هذه الأقلام. فهل تعكس ألوانها شيئا عن نفسيته؟ وهل هو شخص ملون متقلب لا يثبت على رأي؟ وهل هو مصاب بالفُصام حقاً؟ والا فلماذا يكتب تارة عن شخص شيئا ايجابياً، وطوراً يكتب عنه شيئاً سلبياً؟ أم انه يرى في الانسان جانبين: الخير والشر؟

ولقد أخذ يوضح لأولئك الذين يقرأون ما يكتبه في أثناء غيابه عن منزله، أولئك العسس، الأمر، كما وضحه قبل فترة وجيزة لطالب زاره في مكتبه ليسأله عن سبب اختلاف أقلام أعضاء لجنة المناقشة الذين كان منهم. فهل كان هذا مقصوداً وذا دلالة؟ وكتب: ''التنويع أمر جيد أحياناً. تصور أن تأكل كل يوم نوعاً واحداً من الطعام ! "وأضاف:" والقلم ذو اللون الأسود يستخدم للكتابة التي ترسل عبر الفاكس" ولم يكن يخطر على باله، يوم أخذ يكتب بقلم لونه نيلي، وصَلُحَ هذا لترسل الكتابة المكتوبة فيه بالفاكس، وعليه فقد عزف عن الكتابة بقلم لون حبره أسود، لم يكن يخطر على باله أنه سَيُصَنَفُ على أنه نيلي -أي مصري- تماماً كما لم يكن يخطر على باله، حين يكتب باللون الأسود، أن كتابته سوداء، أو أن كتابته حمراء ان كتب باللون الأحمر. وقد احتار في أمر الشاعر منذر عامر، لأنه قرأ له مقالة نشرها في دفاتر ثقافية الصادرة عن وزارة الثقافة الفلسطينية، وقد أخذ منذر هذا يمجد الحامولة والعائلة، وكان أصدر، من قبل، ديوان شعر كان لون خط غلافه أحمر!.

"أخبار الحمقى والمغفلين. هل سأكتب، ذات نهار، هذا ؟

"يكتب صباح يوم بعد أن أنفق نهار أمس اليوم بصحبة استاذ جامعي التقى به في الشارع، وعرض الاستاذ عليه أن يسيرا معا، وكان اليوم يوم خميس وفيه ينفق ساعات يتمشى في أحياء البلدة القديمة في نابلس. وسار مع الاستاذ ليصغي الى كلامه، وكان يدرك أنّ هذا الاستاذ وغيره سيصدرون عليه حكماً ما بعد أن يفترقا، كأن يقول عنه انه تابع أو امعة او ما شابه. ''هؤلاء الذين يتصرفون هكذا صبيان. أحياناً اشعر بأنني لا أقدم تنازلاً حين أسير مع هؤلاء الحمقى، ولأننا هنا نفتقد المسرح الثابت، فانني أسير معهم واشاهد تصرفاتهم واصغي الى تفاهاتهم''.

" أنا انسان نرجسي" يكتب وهو يتذكر ضمة النرجس التي وضعها زميله، ذات نهار، أمامه، وأعطاه من ثمّ شتله منها، وقد ذكره بهذا أحد طلابه الذين ظلوا ينتظرونه حين خرج من

القاعة ليريه ما كان بيديه من النرجس. ويتساءل ان كان حقاً نرجسياً. فهل يعود السبب الى أن المرأة التي تزوجها كانت تشبهه لوناً وشكلاً؟ ولم يذهب هو شخصيا الى هذا، وإنما أصغى الى امرأة أبصرته، ذات نهار، وخطيبته يدخلان معرض ملبوسات الواحة، وقد أخذت تسأله ان كانت الفتاة التي معه أخته. أم يعود السبب في اتهامه بالنرجسية الى انه لا يكتب منذ فترة طويلة الاّ عن ذاته، وكأنه لا يرى في هذه الدنيا الواسعة سواه؟ ولكنه سرعان ما أبعد هذه التساؤلات عن ذهنه، وقد تذكر مقطوعة رديئة كتبها، ذات يوم، واحتفظ بها، ونصُها:

أنت تسأل: من زار المدينة؟
أنت أم شيطانك؟
وتسأل: من سار في شوارعها
ومن حاور أبناءها وحادث نساءها؟
أنت لا تعرف الآن انُ كنت اثنين مختلفين:
ذلك الذي حادث الألمان.
وأنت الذي اخترعوه كذباً وتزويراً.
أنت تسأل اذن:
ماذا تقول المدينة في المدينة؟

وكان قد زار في صيف ١٩٩٦ مدينة (بون)، واقام فيها شهراً كاملاً، وأخذ هناك يجلس، كل صباح، على كرسيه وراء طاولته ويدّون ملاحظات أشبه بالخربشات، يأتي فيها على همومه وتصوراته ورؤاه لما يحدث معه، وهذا ما كان يفعله في نابلس قبل سفره. وقد أعطاني، أنا الكاتب، خربشاته طالباً منّي أن أكتب حولها نصاً أدبياً، واشترط عليّ ألا أكرّر ما كان كتبه في نصوصه النثرية الثلاثة التي نشر واحدا منها، ولم يتمكن حتى الآن من نشر النصين الآخرين. وها أنذا أفعل، وأكتب عن رحلته الى بون، منذ اللحظة التي فكر فيها بالسفر، وحتى عودته سالماً غانما معافى، على الرغم من الامساك الذي اصابه هناك من أكل الجبنة الصفراء

والبيض المسلوق والمربى وتوابعه والعصير والقهوة متعددة المذاق.

وكان قرّر أن يجرب، مرة ثالثة، الحصول على منحة من مؤسسة الـ DAAD، وهي مؤسسة علمية ألمانية للتبادل الثقافي الخارجي، غير مكترث لرفض طلبه، من قبلُ، مرتين؛ مرة بحجة أنه لم يمضِ على تخرجه سوى سنتين اثنتين وثانية بحجة مقنعة عرفها، فيما بعد، من السيدة شجرة الحديقة، الألمانية المقيمة في القدس، وهي التي تنسق ما بين المؤسسة وجامعات الوطن المحتل، لقد أبلغته السيدة أن سبب رفض طلبه يعود الى أنه لم يطبعه على الآلة الكاتبة، وبما أنّ الألمان دقيقون ويحبون الدقة والتنسيق والتكنولوجيا، فقد أزعجهم هذا وحمل اللجنة على التوصية بعدم قبول صاحب الطلب. فما كان منه حين سمع هذا الاّ أن شكر الألمان الذين يطلبون منه، وهو الكسول، أن يطور نفسه.

وتردد في العام الذي تلا عام رفض طلبه لأنّ الموظفة في الجامعة قدّمت له الطلب بطريقة مزعجة، غير انه، في العام الذي تلا عام عدم تقديمه الطلب الذي تلا عام رفضه من الألمان، قرر أن يسافر، فقد استبد به الضجر وحنّ الى تلك البلاد التي تفيض ماءً وتزدهر عمراناً وتكثر فيها النساء النساء، وكان ما يزال يتذكر مقولة بعض رجال المخيم الذين كانوا يتسللون خفية الى احراش يافا عن نسائهم اللواتي لَسن اكثر من خفر سواحل، وقد اكتشفوا هذا بعد ان أنفقوا ساعات في تلك الاحراش التي زارها مرة وشاهد ما قام به أحد أصدقائه الذين كانوا يعملون في المصانع الاسرائيلية، وكانوا يدفعون باليد اليمنى ما أخذوه من صاحب العمل بها ساعة كانت يدا سفلى لا يدا عليا كما بدت في الأحراش، ليعودوا بعد ذلك، أي بعد انفاق أسبوع من العمل في المصانع-، ببعض ما كسبوا لا بجميع ما قبضوا، والآن أخذ يتساءل ان كان ثمة تنسيق ما بين الحكومة الاسرائيلية والنساء اللواتي كنّ ينتظرن نهاية الاسبوع على أحرّ من الجمر، شباب غزة بخاصة، هؤلاء

الذين كانوا يذهبون، الى الحرش، زرافات ووحدانا، كما روى له صديقه الذي خبر المنطقة جيداً.

وتقدم ، من جديد، للحصول على المنحة، ولم يكتب الطلب على الآلة الكاتبة، غير مكترث لما أصغي اليه من السيدة شجرة الحديقة التي وعدته بأن تساعده في تصحيح خطأ ورد في شهادته، ولكنها لم تف بوعدها، والتزم الصمت مكرراً مقولة كاسب في ألف نون التي اوردها عادل الاسطة في روايته " تداعيات ضمير المخاطب": "لقد أفسدها العرب" والسيدة شجرة الحديقة عاشت مع القوم أكثر من أربعين يوماً، فانطبق عليها المثل العربي "من عاشر القوم أربعين يوماً أصبح منهم". ولكنه تساءل حقيقة ان كان الصالحُ يفسد اذا عاش مع الفاسدين فقط، وترك تساؤله بدون جواب، فهو لا يرغب في تقديم أجوبة قدر ما يرغب في اثارة اسئلة.

وانتظر ثلاثة أشهر، حتى اذا ما سأل موظفة الجامعة ان كانت ارسلت طلبه أدرك أنه لم يرسل لأن القسم لم يرشحه، فلما ابلغ الموظف، وهو غير الموظفة وليس هذا بخطأ كتابي أو طباعي، أرسل الموظف طلبه فيما نظر الى الموظفة التي أهملت طلبه نظرة ازدراء.

ولم يدر، بعد سبعة أشهر تقريبا، كيف وافق الألمان على طلبه هذا العام، ووضعوا اسمه في أول القائمة، على الرغم من أنه لم يلتزم بتعليمات السيدة شجرة الحديقة فيما يخص طباعة الطلب على الآلة الكاتبة، وتساءل فيما اذا حنّ الألمان الى الكتابة اليدوية وضجروا من الطباعة الاليكترونية التي تطورت خلال العامين الأخيرين، واسهموا هم في تطويرها، بشكل لافت. وقد منحه الألمان، خلافاً لأكثرية المقبولين، شهراً واحداً لا شهرين، على الرغم من أنه طلب الاقامة، هناك، لمدة شهرين، في حين أعطوا غيره ثلاثة أشهر أو شهرين، على الرغم من أن بعضهم، كما سمع والله اعلم طلب شهراً ونصف شهر أوشهرين. وأخذ الأمرعلى محمله الطيب، فلم يرفض السفر، ووافق على قبول

المنحة، وقال: "لعلهم ما زالوا يؤمنون بذكائي وبانجازي الدراسة في وقت قصير جداً " وترك التأويلات الأخرى تذروها الرياح، ويكررها الآخرون الذين تشابهوا، في هذا، مع الرياح نفسها.

وسار مبكراً الى أريحا، زار الممثلية الألمانية هناك، وتعرف الى موظفيها العرب والألمان، وتقدم بطلب للحصول على تأشيرة دخول الى المانيا، وكتب الطلب كتابة باللون الأحمر وبقلم بايلوت 7 ياباني الصنع، وأخذ ينتظر أياما وأسابيع، ويسأل هذا الموظف أو ذاك ليعرف ما ألمّ بجواز سفره وحصوله على التأشيرة، وضجر ضجراً كبيراً، لا لأن الممثلية الألمانية منحت أصحابه الذين تقدموا بطلبات معه أو بعده تأشيرات ولم تمنحه، وانما للتصرفات التي بدرت من الموظفين هناك والموظفين في السفارة الألمانية في تل أبيب. ولقد ثرثر كثيراً معهم، ودفع مبلغا آخر من المال للهاتف الذي تحصل على أمواله شركة (بيزك) الاسرائيلية، وقال : " لعل ثمة تنسيقا بين الشركة وموظفة السفارة" ثم قال أيضا: "او لعلهم ساديون الى درجة لا تتصور، والا فما معنى أن يمّر شهر كامل وهم يقولون له يومياً: اتصل غدا، ليكرروا عندما يتصل العبارة نفسها. ولقد خاطب موظفا ألمانيا بدا في كلامه لطيفا: " شكرا لكم، وأريد أن أحصل على جواز سفري دون تأشيرة، غير أن هذا وعده أن ينظر في الأمر، وطلب منه أن ينتظر قليلا. ولما ذهب ليحصل على جواز سفره أعطوه اياه مع تأشيرة السفر. ومع ذلك فقد قال للموظف العربي: "أنا لا أعرف كيف تتصرف ممثلية دولة عظمى تصرفا صبيانيا، وغادر المبنى، وقد شكر الموظف الألماني.

وكان، في هذه الأثناء، يراجع مكتب (اللوفتهانزا) من أجل الحصول على تذكرة السفر التي احضرتها له الممثلية الألمانية قبل أن تعيد له جواز سفره وعليه تأشيرة دخول ألمانيا. ولم يتساءل عن غباء الألمان، فهو لا يشك في ذكائهم، ولولا انه يخاف من أن يتهم بأنه نازي لأقر بعظمة هذا الشعب، لما رآه في بلادهم من دقة وتنظيم وروعة. أما لماذا فعل الألمان معه هذا، فهو لا يعرف

سبباً مُقنعاً، وان كان يعرف تأويلات معينة وردت عنه في نص "الوطن عندما يخون" و نص "ليل الضفة الطويل"، ولا ضرورة لتكرارها هنا، غير أنه قال" : هل يظن الألمان بأنني أحمل جواز سفر اسرائيلياً؟. وتابع: "والا فلماذا أرسلوا لي تذكرة الطائرة قبل اعادة جواز سفري الفلسطيني وعليه التأشيرة؟".

وقرّر السفر، مع أنه كان بحاجة الى تصريح اسرائيلي لمدة يوم، يعبر بواسطته الحد الفاصل بين مناطق ١٩٤٨ المناطق المحتلة عام ١٩٦٧، ليطير من مطار اللد. ولم يكن، في هذه الأثناء، الا نادراً، يخربش أو يدون همومه، ولذا لم يعطني شيئا لأنقله دونما تدخل مضيفا أو حاذفا، وانما أكتب ما قصّه عليّ، خلافا لما ستلاحظونه بعد هذه الصفحات.

ولأنه من منطقة ما زالت تخضع للاحتلال الاسرائيلي الذي ما زال يحتل المناطق المحررة أيضا، والمناطق التي يتجول فيها بين الفينة والفينة، فلم يذهب الى مكتب الارتباط الفلسطيني ليحصل من خلاله على تصريح السفر، وانما ذهب الى مكاتب الادارة المدنية الاسرائيلية في حوارة وفيها - أي في حوارة - تكررت لعبة السفارة. ولو كان يكتب مذكراته اليومية لذكر التواريخ والساعات بتمامها وكمالها ودقتها التي لن تختلف عن دقة دقات ساعة (بيج بن).

ولم يكترث للفيلم الذي عرضه التلفاز الاسرائيلي، في تلك الفترة، الفيلم الذي يُري ما يفعله الألمان بأؤلئك الذي يجتازون حدودهم، فلم تخفه الأسلاك المكهربة ولم يكترث للكلام عن النازيين الجدد، لأنه أدرك، منذ سنوات، أن ثمة نازيا يختفي في كل واحد منا، والا فما هو تفسير ما يحدث في مناطق عديدة من هذا الكون؟ ثمة نازيون في نابلس، وثمة نازيون في تل ابيب، وثمة نازيون في القدس، وثمة نازي في شخص كاسب نفسه، كاسب الذي كان يكرر على مسمعه، يوم كانا في المانيا، بأن الزنوج ينبغي أن يبادوا. ولا يدري حقيقة، أن كان السود أنفسهم يختلفون عن البيض في نظرتهم الى البيض.

وكان، وهو في السيارة التي تُقله الى حوارة، غير مكترث الى الشابين اللذين جلسا الى جانبه، وكان أحدهما بضاً ممتلئا ذا عضلات قوية أخذ يحركها بطريقة لافتة للنظر. وحين وصل حوارة بدأ ضربٌ آخر من السادية أو التمثيل الذي لا يعبّر أيضا سوى عن سادية. وتساءل: بم يختلف الاسرائيليون عن الألمان؟ واضاف: وبم نختلف نحن عنهم؟ وتذكر ما يحدث معه في وطنه منذ خمس سنوات. وهمس: ساديون. ساديون. ساديون. ولولا أنه يخاف من أن يتهم بأنه من أنصار هتلر، لكتب أن هتلر ليس حالة استثنائية في هذا العالم.

ووقف في التاسع من تموز مع من وقفوا، من أجل الحصول على تصريح، وكانوا لا يتجاوزون العشرة، وبعد دقائق قليلة نادى عليهم جندي لم يتجاوز العشرين، وكان يشبه شاباً من مخيم عسكر ينتمي الى فصيل يساري، وقال ببساطة: الكمبيوتر خربان، فغادروا جميعاً. ولما تباطأ، ولم يغادر مع من غادروا، ناداه الجندي وسأله عمّا يريد، فأخبره، وصمت الجندي للحظة ثمّ قال له: تأتي بعد غد، وسوف أقول لك بعد غد أن تعود بعد ثلاثة أيام. ولما غادر المكان، وهو يمدح عملية السلام التي عادت عليه بالنفع، قرّر أن يعود في الغد لا بعد غد، وكرّر المحاولة، فبدا له جندي آخر يشبه شابا من مخيم عسكر، ولم يكن يلازمه صديق، كما كان يلازم المشبه به صديق ملازمة الزوج لزوجته، وطلب الجندي منه لمّا عرف أنه سيسافر في منتصف الشهر، أن يغادر الآن، المكان، وأن يعود صباح اليوم الذي سيسافر فيه، ولكنه لم يلتزم بما سمعه، فظل ينتظر دقائق حتتى انصرف الجندي. ودخل، الى مبنى الادارة، خلسة وقدّم طلب التصريح للجندي الدرزي الذي طلب منه أن يعود بعد يومين لاستلام التصريح. وغادر فرحاً لأنه أدرك أنه سيطير كما يطير الآن من الفرح، وان تماسك وضم جناحيه لأنه يكرر بينه وبين نفسه أنه لن يسافر، وأنه لن يصدق أنه سافر الاّ اذا أقلعت الطائرة وابتعدت عن السواحل الاقليمية للدولة الاسرائيلية.

وأنفق يومين يجوب شوارع نابلس، يتحدث مع من يعرفه، كاتما خبر سفره حتى لا يكتم على انفاسه ان لم يطر. ولمّا أفاق، بعد يومين، توجه من جديد الى حوّارة، وسأل الدرزي عماّ ألمّ بمعاملته، فبحث له هذا عنها فما وجدها. وحمد الله أن أمر اختفاء المعاملات ليس مقتصراً على الدوائر العربية، فثمة صلة قُربى بيننا وبين اليهود، وهذا ما يعترف به الملك حسين وأبو عمار، ولقد أوحى له غَضبَ الدرزي أنّ في الأمر ما فيه، ونادى عليه هذا وطلب منه أن يوقع على طلب جديد، وأن ينتظر حتى ينادي عليه، وظلّ ينتظر، وغاب الدرزي وحلّ محله شاب يهودي يشبه مانويل الذي ورد ذكره في "تداعيات ضمير المخاطب"، ونظر هذا اليه كأنما يُناديه، دون أن يناديه، فما حرّك ساكناً وظلّ ينتظر الدرزي وعودته، حتى اذا ما أنفق ست ساعات بالتمام والكمال، جاء الدرزي وناداه ليبلغه انهم رفضوا مَنحهُ تصريح سفر، ولما رأى أحد معارفه من الفلسطينيين، وكان هذا من أعضاء لجنة الارتباط الفلسطينية الاسرائيلية، وقصّ عليه قصته، أبلغه أنه خطير. وغادر يتساءل عن سبب خطورته دون أن يعرف حقاً كيف يكون خطيراً. واتجه الى مكتب (اللوفتهانزا) وألغى موعد السفر، وأبرق الى (بون) يخبر الاستاذ (فيلد) بالخبر الملعون.

واختلف الأمر في اليوم التالي. ذهب الى الجامعة فوجد فاكساً أرسلته مؤسسة الـ DAAD تخبره المسؤولة فيها فيه أن يخبرهم بما جرى، وتعلمه أن عليه أن يدفع فارق التذكرة بسبب التأجيل المتواصل لموعد السفر، واتصل به موظف السفارة اللطيف، وطلب منه أن يخبر الألمان بما حصل معه، ففعل. وتوسط له مكتب الارتباط في نابلس، ووافق الاسرائيليون له على السفر.

وقرر أن يسافر ثانية، وعزم أمره وحزم رأيه، وانتظر حتى جاءه الردّ بالايجاب، ففرح لذلك من جانب، وحزن لسبب آخر، لا ضرورة لذكره.

" من جديد سوف أركب الطائرة. وأخيراً وافقوا على أن اسافر لمدة شهر. لا بأس. سوف اسافر، وليس للمرء سوى ما كتب له، وسأمشي الخطى التي كتبت علينا:

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها"

ظهيرة الجمعة استقل السيارة الخاصة التي يقودها سائق من نابلس يحمل الجنسية الأمريكية وانطلق. وأخذ السائق يحدثه ويسأله. عرف منه أنه يقيم، الآن، في القدس، وسمع منه ما سمعه، بعد عودته، من امرأة مقدسية تمدح اليهود، وتتمنى ألا يخرجوا من القدس، لأن أهل القدس سوف يفتقدون، ان خضعوا للسلطة الفلسطينية، العديد من الامتيازات التي يحصلون عليها الآن، وهم يحملون الهوية الاسرائيلية. ولم يدهش من كلام المرأة، فالعمال الذين يعملون في مناطق ١٩٤٨ يمدحون أصحاب العمل اليهود ويذمون أصحاب المصانع العرب، ومعظم هؤلاء العمال من أبناء المخيمات الذين يشيدون على أراضي أبآئهم مدناً عبرية. وما يستغربه، حين يصغي الى هؤلاء العمال، أنه لا يسمع منهم كلاماً يحمل اليهود مسؤولية بؤس الحياة في المخيمات. ويحاول أن يجد تفسيراً لهذا كله فيقول: لعل السبب يعود الى أننا شعب بلا ذاكرة، شعبٌ ينظر الى ما بين يديه فقط. ولعله يعود الى وفرة النقود الاسرائيلية قياسا الى نقود البرجوازية الفلسطينية التي ترغب في أن تحصل على كل شيء، دون أن تقدم للعمال شيئا.

ولفت سائق السيارة انتباهه الى الجنود الاسرائيليين الذين يقفون على الارصفة، وقال على مسمعه: أحيانا يفكر المرء في ...، وغير الحديث وقال للسائق: دعنا من هذا واتركني أصل الى المطار. وكان يعرف ان السائق يريد معرفة رأيه.

الساعات الثلاث التي أنفقها في صالة المطار يبحلق في وجوه الناس ويصغي فيها الى صوت المذيع أو المذيعة، أو يجيب فيها عن اسئلة المجندة الاسرائيلية مرت مروراً سريعاً. ولم يشعر

وهو يحادث تلك المجندة بأي ضجر، ولكنه لم يصغ الى كلامها كله، ولم يلتزم بعباراتها الأخيرة لقد فضل أن يتجاهلها، ونظر الى ابهام الجندي الاسرائيلي وسبابته وهو يشيعه ساعة نزوله درج صالة المطار وصعوده الباص. وأخذ في الطائرة يدون ملاحظاته.

"لقد ذكرتني الفتاة التي تعمل في مطار اللد، الفتاة التي اصطحبتني وسألتني أسئلة أمنية عديدة، لقد ذكرتني بطالبة الاستشراق اندريا، هذه التي تعرفت عليها في توبنغن. لقد كانت المجندة لطيفة جداً، وبدا لي، وأنا اسير معها من مكان الى مكان، كما لو أنني أسير مع اندريا. ثمة فارق واحد يكمن في شكل البنطال: فبينما كان بنطال أندريا ابيض اللون كان لون بنطال الفتاة الاسرائيلية، مثل بقية لون بلاطين الفتيات الأخريات، كحلياً؛ شعرها القصير، نظاراتها، وجهها الغض ومؤخرتها الكبيرة. وكنت أتساءل، وأنا ارى مؤخرتها، فيما إن كنت سأصبح عبداً للمؤخرات اللواتي يبرزن من خلال البنطالات.

الطريف في الأمر انني جلست في الطائرة على مقعد في وسط الطائرة الى يساره ثلاثة مقاعد أخرى جلست عليها طفلتان صغيرتان وأمهما التي تشبه مطلقتي، وكانت الطفلتان لا تتجاوزان الرابعة من العمر، وتبدوان كما لو أنهما توأم.

لا أدري لما تلبستني وأنا في الطائرة حالة كتلك التي عشتها في الوطن. هكذا كنت أتابع حركات الركاب والمضيفات وهن يتابعن حركاتي أو كلامي عندما أطلب شيئا لأشربه أو لآكله أو جريدة لأقرأها. ثمة رجل ألماني وزوجته يجلسان الى يميني، والى يساري طفلة تجلس أمها الى يسارها والى يسار أمها الطفلة الثانية. كانت المضيفات يتابعن حركاتي. هكذا خيل اليّ. والحقيقة أن حركة الايدي هذه أخذت تزعجني لدرجة اصبحت أوثر فيها الأ انظر الى يد أحد، وألا أتابع حركة أصابعه.

كان الرجل الألماني الذي يجلس الى يميني يقرأ في مجلة (شتيرن) ذات النجمة الحمراء والكتابة بالخط الأبيض. وأخذت أتخيل أن شيئاً ما كتب عن رواية "تداعيات ضمير المخاطب" في

احد أعداد المجلة وكان الرجل يوحي إلي أن ما كتب عنها أبيض. وما لفت نظري في البداية، بداية اقلاع الطائرة، أنهم كانوا يتابعون نظراتي ليلاحظوا ان كنت أتابع الشواطىء والجزر، وكانوا يرفعون السبابة ويشدون على الابهام ليقولوا لي : انك صادق فيما كتبت.

ولقد بدأت، وأنا في الطائرة ، أعيش الكابوس بأبشع أنواعه وأقساها، وبدأت أتمنى لو كنت، في هذه الدنيا، نكرة. وكانت المرأة وطفلتاها تذكرانني بمطلقتي وطفلتيّ. كانت الأم، أو هكذا خيل اليّ، تمثل دور الأم. وكنت أتابع حركات يدها والكتاب العبري الذي كانت تقرأ فيه. ولم تكن الأم تجيد اية لغة غير العبرية. لقد بدأت ألاطف طفلتها وأتكلم معها بالعبرية، قدر ما أستطيع.

وكنت أتابع خط الرحلة من على شاشة التلفاز: كنت أرى مسار الطائرة وارتفاعها عن الأرض وسرعتها في الساعة ودرجة الحرارة في الجو. وكان يجلس أمامي شابان وشابتان، وبدا الشابان اسرائيليين، وكانا ذا جسدين قويين. أما عنوان الكتاب فكان (أحبٌّ زر) والغريب في الأمر أنني هذه المرة خلافاً للمرة السابقة، بدأت أكتب وأنا في الطائرة".

هذا ما دونه في الطائرة على الورقة التي وصلت اليه من مؤسسة الـ DAAD الألمانية موقعة من السيدة Ilona Kruger-Rechmann وفيها تطلب منه أن يبلغها حتى ١٩٩٦/٧/١٧ فيما اذا كان سيأتي الى المانيا ومتى؟ وتخبره أن عليه أن يدفع التكاليف المتزايدة للحجز واعادة الحجز، كما لو أنه، لا الألمان والاسرائيليون، المسؤول عن ذلك!!.

أفاق صباح اليوم التالي لوصوله، ووجد في غرفة الفندق أوراقا وقلما ومغلف رسالة عليه شعار الفندق واسمه (أوتيل كونتننتال/بون)، وأخذ، بعد تناوله الافطار، يدون ملاحظات أكتبها كما دونها دون تغيير:

" تصحو هذا الصباح المبكر بعد نوم ساعات قليلة أزعجك فيها صوت العرب وهم يصرخون: أسد بون، أسد بون، وصوت المحرك. ترى المرأة في غرفة الافطار وحيدة. تفطر وحيداً وتعود الى الغرفة. تفكر في الكتابة. ما الذي كان يخطر في ذهنك وأنت تتناول طعام الافطار: أبي والعالم الثالث. يشكو ابي من مرض وفقر وشح في مواد الافطار، ويموت العالم الثالث لأنه يريد أن يموت. وكنت وأنت تتناول طعام الافطار تفكر في الثراء والرخاء والفقر وأبيك. وكنت تكرر: الذي يحبه ربه يفرجه على خلقه. أحياناً اقول: أوروبا هي العالم كله وما دونها مجرد أشخاص يتحركون الا من عاشر الطراز الأوروبي.

أمس في القطار مثلا، جَلَست أمامي فتاة آية في الجمال. كل ما فيها يسبح قائلا: الخالق موجود هنا فقط. كانت تتكلم بفرح وتحادث شخصاً بفرح، وجاء شخص آخر وجلس الى جانبي وأكل من الطعام ما لذّ وطاب، ودفع أربعين ماركاً كما أدفع أربع أغورات اسرائيلية. هنا ثمة طمأنينة، وهناك ثمة خوف من المستقبل. وكنت أنظر الى الفتاة وهي تقرأ في رواية لميلان كونديرا لم أتمكن من رؤية عنوانها جيداً.

شيء واحد آمله وأنا في ألمانيا: ألا أتحول، من جديد، الى أرنب تجارب. أن تحيا الكابوس دائما، فهذا شيء مزعج. سبع سنوات ويزيد ولا ترى سوى الأصابع تتحرك: شجاع، رجل، متساقط. وكل كلمة ولها معنى. أنا شخص أصبحت مصاباً بالفوبيا أو البرانويا. ما قاله لي الشاب الصغير في (بامبرغ) حين لحقني مراراً - وكان أرسل من الجهات الألمانية- أصبح حالة ملازمة لي، ولم أكن، من قبل، كذلك: حقا انني مصاب الآن بالبرانويا "صباح الخير يا ماجد".

وغادر، صباح ١٩٩٦/٧/٢٧، الفندق مبكراً. حمل حقيبته وأخذ يجوب شوارع العاصمة، ويبحث عن سكن يقيم فيه. لقد نقّد موظف الفندق مائة وخمسين ماركاً، وكان هذا له مبلغا لا بأس به، ولا يستطيع أن يكرر ما فعله بالأمس مضطراً. ذهب

الى منزل الطلبة الواقع في وسط المدينة علّه يعثر على طالب عربي يساعده في الحصول على غرفة. وتذكر كاترين طالبة الاستشراق، وكاترين هو اسمها الكنسي، وكان قد زارها قبل ست سنوات الا شهراً، وأطعمها الموز، ولم يكن يومها مرتاحاً كثيراً، وكان يشاهدها تأكل الموز بشهية، ولما كشفت له عن ساقيها بانت له غابة من الشعر لم يشاهد مثلها من قبل يوم التقى بفتيات آخريات. قرأ الأسماء فلم يعثر على اسمها، وقرع جرس طالب عربي خرج له، وتعارفا للحظات، وبعد أن أعطاه الثاني عنوان المسؤول عن منزل الطلبة افترقا. بحث عن مسؤول منزل الطلبة في المنزل غير البعيد عن المنزل الأول، وعرف أنه يداوم يوم الأثنين صباحاً.

وسار في شوارع بون. بحث عن فندق آخر أرخص سعراً. وتعرف على فندق (هاوس هوفجارتن)، وقال لموظفه أنه سيعود في منتصف النهار.

كان الجو في بون صيفيا. تموز ١٩٩٦ والسبت هو السبت الأخير من الشهر. وسار في الشارع التجاري. دخل أولاً مبنى تجارياً اشترى منه دفتر رسائل يتكون من مائة ورقة، ثم أخذ يذرع الشوارع. شاهد امرأة ترسم في وسط الشارع، فجلس على الرصيف، وأخرج من حقيبته الدفتر الذي اشتراه ودّون الملاحظات التالية:

"١٩٩٦/٧/٢٧.

بون. شارع رئيس. يوم السبت. امرأة ترسم في الشارع. ردود أفعال الناس. ماذا يقولون؟ نحيفة جداً. شعر أسود مربوط بقطعة قماش سوداء. أربع علب لمن يرغب في وضع النقود. بعض الناس يتساءل: رسمٌ في الشارع. طباشير. كانت هذه الفنانة تنقل رسماً من ورقة قديمة موضوعة أمامها على الرصيف لتبدعه - أي الرسم- من جديد، كما لون أن الورقة مخطوط. كما لو أنّ الفنانة تحقق مخطوطاً".

وتوقف طويلاً أمام الورقة والفنانة. أنفق ساعة أو يزيد وهو يراقب حركاتها واشاراتها. بدا له كما لو أنها تعرفه. كما لو انها كانت تخاطبه وتعرف قصته من الفها الى يائها، وخيّل اليه أنّ أهل بون كلهم يعرفونه أيضا. وقد ذهب به الأمر مذاهب شتى فتخيل صورته على شاشة التلفاز، تخيلها تعرض من على شاشة غير محطة يرافقها صوت مذيع يتحدث عن هذا الزائر الغريب، هذا الذي جاء الى المدينة، من جديد، ليصبح فيها معرفة بعد ان كان نكرة يوم أنفق فيها، من قبل، أشهراً عديدة اقام فيها مع أسرة ألمانية، وقضى معظم وقته في قاعة الاستشراق في جامعة بون.

وكان، وهو يتابع الفنانة تعيد خلق قصاصة الجريدة، يتذكر ما قيل عن اطروحة الدكتوراه التي أنجزها. ثمة مخطوطة مجهولة المؤلف، ولم يلتفت أكثر الذين روّجوا هذا الكلام الى أن ثلثي مصادره نشرت في السبعينات وفي الثمانينات. وهذا ما التفتت اليه دارسة أكاديمية نشرت مراجعة حول رسالته ونشرتها في مجلة "عالم الاسلام".

قال عبارة موجزة هي: "لو فعل شخصٌ هذا في بلادنا لسخر الناس منه ولربما ضرب ضرباً مبرحاً" وغادر ليبحلق في المحلات التجارية وفي النساء أيضا، ولم يلتفت الى الفنانة كثيراً، فقد كانت شاحبة هزيلة نحيفة، ولم تَبدُ جميلة على الرغم من أنها تبدع الجمال.

ولما أنهكه التعب جلس على مقعد خشبي تظلله بعض الأشجار الضخمة. واخذ يراقب الناس في ذهابهم وفي ايابهم، وينظر أيضا الى محطة القطار غير البعيدة. وأخذ يخوض حواراً مع امرأة جلست وزوجها الى جانبه، كأنما كانا ينتظران ابنهما الذي وصل بعد قليل وشارك في الحديث. تذكر الأسرة الألمانية التي أقام، قبل سنوات، في منزلها، وتخيل نفسه يحاور تلك الأسرة. تحدثوا عن الشرق والغرب حديثا وديا، وتحدثوا أيضا عن زواج الأوروبيات من شرقيين، وأبدوا امتعاضهم من مثل هذا الزواج الذي غالبا ما ينتهي، اذا ما اقامت الغربية في الشرق،

بالفشل. ولقد أخبرته الزوجة أنها زارت، قبل سنوات، المغرب ولاحظت الفارق بينها وبين أوروبا. ولم يختلف في وجهة نظره عن وجهة نظرهما. قال ان الأوروبية التي تتزوج من شرقي وتعيش في الشرق تشبه ابنة البرجوازية التي تعيش أولا في المدينة، ثم تتزوج من ريفي وتعيش معه في الريف. وفكر في ان يكتب قصة قصيرة عن هذا ويختار لها أربع شخصيات: أوروبية وشرقي وبرجوازية من مدينة نابلس وريفي. ولقد كان الحوار مع الرجل وزوجته وابنهما حواراً هادئاً لطيفا ودوداً، وقد غادروه متمنين له أن يقضي عطلة نهاية الأسبوع قضاءً سعيداً.

وفجأة شاهد امرأة تقترب من عازف الموسيقى بطريقة بدَت فيها عدوانية، وهذا ما لم يشاهده من قبل، اذ كان يلاحظ الناس يصغون الى عازفي الموسيقى بفرح. لقد حاولت المرأة منعه من مواصلة العزف. وطلبت منه أن يبرز لها الاذن الذي يستطيع بموجبه ممارسة هذا الفعل. وأخذ الناس يدافعون عنه ويطلبون منها أن تتركه وشأنه.

وبينما أخذ يتابع السير لفتت انتباهه امرأة أخرى، امرأة بدت الى حد بعيد جميلة. وكانت هذه تجلس وأمامها ورقة كتب عليه نص بالألمانية نقله حرفياً، وها أنا أترجمه:

" من فضلك تبرعٌ ما حتى أمكّن نفسي من شراء سيارة مرسيدس وحتى استطيع السفر في رحلة. شكرا جزيلا".

ولم يعقب على ذلك فيما كتب. ولما انتصف النهار، وكادت الحوانيت تغلق ذهب الى الفندق، وقد رحّب به الموظف الذي بدا لطيفا جدا، وتساءل اين رأى، من قبل، شخصاً يشبه هذا. تذكر ايامه الخوالي والأشخاص الذين عرفهم، وتساءل ان كان هذا الرجل يساريا، تساءل بعد أن لاحظ لون القلم الذي كان بيده، وبعد أن لاحظ أيضا حركات الابهام والسبابة. وذهب الى غرفة صغيرة لا تتجاوز المترين في ثلاثة، فيها تلفاز ذكره اسمه باسم (سابا) بطل رواية ناصر الدين النشاشيبي "حبّات البرتقال"، سابا الذي أحبته الفتيات اليهوديات ووقفن الى جانبه. وانفق ما تبقى من

نهار السبت وحيداً، يقرأ تارة ويشاهد التلفاز طورا، حتى اذا ما كان الصباح غادر غرفته لتناول الافطار وبعد أن تناول الافطار، عاد من جديد، الى غرفته وكتب:

"أعتقد أنّ هناك قدراً كبيراً من التشابه بين الأفراد الذين عرفتهم من قبل، وبين أولئك الذين جلسوا، اليوم، على مائدة الافطار. ولقد كِدتُ أسأل الشخص الذي جلس، مع صديقته، الى يساري، ان كان (أودو) طالب الاستشراق الذي عرفته في (بامبرغ) أخاه. لقد ذكرني شكله وصمته وكلامه الهامس بـ (أودو).

حالة من التلبس تنتابني. أبحلق في الوجوه وأتأمل الحركات، وأشابِهُ وان كنت أدرك جيداً أن التخلص من هذه الحالة يجعلني أحيا حياة أفضل من تلك التي أحياها حين أرى أشخاصاً عرفتهم في أشخاص آخرين. الفندق ١٩٩٦/٧/٢٨.

الانجليزيان اللذان جلسا ليفطرا معاً ذكراني بالانجليزي وبعبد الله الجزائري، وذكرني الرجل الكبير الوسيم الذي جلس مع زوجته باستاذ وسيم عرفته في بون.

رواية كابوس الفلسطيني!!

هل الكابوس الفلسطيني حقيقة أم أنه كابوس مبالغٌ فيه.

تبدو الكتابة بالقلم ذي اللون الأحمر السائل أكثر اغراء.

لا أكتب بالخط الأحمر لأنني شيوعي، وانما لأنني أرى فيه الأجمل بين ألألوان".

* * *

"وانا أنظر الى الغرفة رقم ١١ في الفندق، وكان بابها مفتوحاً، تذكرت أيام توبنغن. كنت في الشقة، يوم السبت صباحاً، وجاءت النرويجية (انغون تفايدة) وتركت باب غرفتها مفتوحاً. تعارفنا بسرعة وسألتها ان كان لها صديق فأجابت بأنها تعرفت، منذ أسبوع، الىشاب ايطالي، وقالت وهي تبتسم: لو أنك جئت قبل اسبوع. ولم يأت صديقها فتغازلنا بسرعة لولا لقائي بأندريا طالبة الاستشراق، هذه التي لبّت دعوتي وزارتني في غرفتي. وقد

أنفقت وأندريا خمسة أسابيع أرى أنها الأجمل في أثناء اقامتي في ألمانيا. لقد شعرت لأنني تعرفت اليها في بيت طالب عربي، ببعض الثقة، ولم أر فيها ما رأيته في بربارة ونينا، ولم تكن أندريا تمانع في ان يكون اللقاء عابراً، وما حيّرني فيها سؤالها وبعض عبارات قالتها عن علاقتي بزوجتي".

على مقعد على حافة النهر، رأى الأطفال وأمهاتهم وأباءهم يسيرون معاً، أو ينتظرون السفينة التي ستبحر في الراين صوب (كولن) ومدن أخرى "السفن البيضاء مثل الحياة البيضاء" همس، وأخذ يبحلق في الناس وفي النهر وفي السفن طويلاً، وبعد ساعات مرّت لم يشعر فيها بالملل غادر الى الفندق. استرخى قليلاً ثم غادره مساء من جديد، وحين عاد جلس على الكرسي وأخذ يخربش: ١٩٩٦/٧/٢٨".

الساعة السادسة والنصف مساءً ذهبت أتمشى في ساحة الجامعة ورأيتُ الطلبة عرباً وأتراكاً وايرانيين وألماناً وآخرين من جنسيات أخرى. لقد ذكرني المشهد بأيام كارلسروه، يوم كُنتُ أقيم في حزيران ١٩٩١ عند عبد الله الجزائري. وحين أصغيتُ الى ثرثرة بعض الطلبة العرب، ولم أفهم ما يقولون بسبب لهجتهم، سألتُ أحدهم ان كان جزائرياً، فاجاب بالايجاب، ثم نطق عبارة لم أفهم منها شيئاً. وسألته عمّا قاله، فوضح لي أنه سألني ان كنت أبغي حشيشا.

وقصة الحشيش قصة.

تعرفت الى مدرسة اللغة وأعجبنا ببعضنا، ودعوتها الى شقتي فلبّت. شربنا القهوة وسألتها ان كانت لديها الرغبة في أن نتصادق. أخبرتني أن لها صديقاً، وأنها لا ترغب في اقامة علاقة مع اي شخص آخر، وبخاصة اذا ما كانت العلاقة جنسية، اذ - كما قالت لي- ستفسد هذه العلاقة صداقتها مع صديقها. احترمتُ رغبتها ولم أحاول معها. وفوجئت، بعد لحظات، أنها تسألني ان كنتُ أملك حشيشاً، فدهشت لأنها تحشش، وسألتها عن السبب الذي

يدفعها لممارسة هذا السلوك فأجابتني : أحيانا أحشش وأختي حين نكون معاً".

أشعل التلفاز قليلاً. غيّر في المحطات. لاحظ أن هناك محطة تبث أفلاما اباحية الى حد ما، أفلاماً توضح للزوجين كيف يمارسان العملية الجنسية. ولم يكن، قبل سنوات، يعرف شيئاً عن هذه المحطة. كان فقط يتابع بين الحين والحين محطة RTL التي كانت تبث أفلاما فيها مشاهد جنسية يشاهدها ايام السبت مساءً، ولماّ زار (براغ) في تشرين أول ١٩٩٠ شاهد الطلبة التشيك ايضا يشاهدونها. ثمّ سرعان ما أطفأ التلفاز ليواصل تدوين ملاحظاته.

"ثمة ما لم يكتب في رواية "الوطن عندما يخون" و "تداعيات ضمير المخاطب". هناك كلام على قدر من التناقض، فمنهم من يزعم أنني مبذر ومنهم من يزعم أنني بخيل. لم يقل أي من هؤلاء هذا مباشرة. انهم يوحون لي بحركة يدهم اليمنى فيما يخصني، وبحركة اليد اليسرى فيمن يزعمون أنني أفكر بالارتباط بها. والحركة، للمسلم الذي يقرأ القرآن ولغير المسلم الذي يقرأ القرآن مفهومة: (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا). وحين أذكر أندريا (توبنغن) يبسطون يدهم اليمنى، ويبدو أنها قالت أنني كنت كريما معها، اذ كنت أدفع ثمن فنجان القهوة وثمن تذكرتي السينما أو ثمن تذاكر دخول المتحف. وأعتقد أن ما دفعته أندريا في المطعم اليوناني، يوم دعتني لتودعني، كان يساوي كل ما دفعته عنها. انني أكنّ لأندريا - حتى ألآن- قدراً من الاحترام، ولا أدري ان كان ما ورد عنها في رواية " تداعيات ضمير المخاطب" قد أغضبها هذا اذا كانت قرأت الرواية، واذا ما التقيت، هذه المرة، بامرأة وارتحتُ لها، فسوف أصادقها".

تمدد على السرير، وتناول ديوان شعر محمود دوريش "لماذا تَرَكتَ الحصان وحيداً؟" قرأ بعض قصائده، ثم وضعه جانباً وأخذ يقرأ في رواية عاموس عوز التي اشتراها، صباح السبت، من مكتبة (بوفير). قرأ صفحات وصفحات ثمّ وقف عند بعض

العبارات التي وردت فيها. وضع أزاءها اشارات ثم أغلق الرواية ونهض عن سريره واخذ يدون ملاحظاته.

"يدرك الاسرائيليون أنهم فعلوا بنا ما لا ينبغي أن يفعل. يرد هذا في رواية عاموس عوز "الحالة الثالثة"، ولو قلتُ شخصياً - وهذا ما أقوله حين أحاور الآخرين - ما وَرَدَ على لسان بعض شخوص الرواية لاتهمتُ بأنني ارهابي. يرد في ص ٦٢ من طبعة منشورات (سوركامب): "لقد أدرك العرب بوضوح أن المرء لا يستطيع ان يرمينا في البحر. وتبقى مجرد مشكلة أن اليهود لا يستطيعون أن يعيشوا دون وجود شخص يرغب في رميهم في البحر".

عاد من جديد الى السرير. ألقى رواية عاموس عوز جانبا وأخذ يشاهد التلفاز ويصغي الى هذه المذيعة أو تلك حتى يعود أذنه الاصغاء الى اللغة، فلقد مّرت خمس سنوات ونصف شهر دون أن يستمع الى الألمانية الاّ لمُا ما. أدرك أنّ اتقان اللغة يحتاج الى ممارسة مستمرة قراءة وكتابة واصغاء. ولولا بعض ما أنجزه من ترجمات لنسي اللغة كلياً. عاد الى الطاولة وخربش معبراً عن رأيه في اللغة وموقف الألمان من اتقانه لغتهم:

"الأمر بسيط. ليس هناك من ضرورة لاختبار لغتي العربية والألمانية. يمكن أن يكلفني الألمان، وأنا هنا، بترجمة بعض النصوص من الألمانية الى العربية، وسيرون أنني سأعطيهم ترجمة مثل تلك الترجمات التي أنجزتها، سيرون ذلك الا اذا أرادوا أن يصدقوا ما يدور في رؤوسهم فقط".

وتابع الكتابة:

" ولقد أرسلت في شتاء ١٩٨٤ الى صديقي الذي كان يدرس الأدب العربي في جامعة (بون) رسالة أطلب فيها منه أن يكلم استاذه حتى يكون مشرفاً على رسالة الدكتوراة التي أنوي انجازها، فأرسل لي عنوان استاذه لأكتب له مباشرة، وكَتَبتُ وما تلقيتُ يومها جواباً. وابلغني صديقي، فيما بعد، أن رسالتي لأستاذه كانت فاتحة نقاش بينهما حول مستوى الطلبة العرب، وانه -اي

استاذه- لم يجب لأنه غيرُ راضٍ عن مستوى الطلبة العرب. فهل غيّر الاستاذ رأيه في الطلبة العرب أم أن هناك فكرة في دماغه لا يريد التنازل عنها، على الرغم من اعجابه بصديقي، وأعتقد أنني واحدٌ من أولئك النشيطين جداً، ولقد أنجزتُ، خلال السنوات الأخيرة، ما لم ينجزه أي خريج درس في ألمانيا".

وأخذ يشاهد التلفاز من جديد. بحث عن مشاهد أفلام جنسية ليعرف ما يعرضه التلفاز الألماني، وليستمتع أيضا برؤيته ذلك، وليقول للذين يراقبون غرفته من بعيد: سوف أشاهد هذه الأفلام. ولكنه لم يذهب الى أماكن عرض أفلام الجنس الواقعة في محطة القطار أو القريبة من مبنى الجامعة، ولم يدفع ماركاً واحداً لذلك، وغطّ في نوم عميق، غير ملتفت الى الرافعة التي كان يشاهدها من شباك غرفته.

صباح اليوم التالي أفاق في الخامسة صباحاً، ذهب الى الحمام فاستعاد عادة قديمة مارسها في ألمانيا يوميا: الاستحمام اليومي. حلق ذقنه واسترخى على السرير يقرأ، ثمّ ترك الكتاب جانباً وأخذ يخربش:

" تذكرني هذه الأيام بأيام كارلسروة العشرة. لو يتركني الآخرون أحيا بهدوء. لو نعقد هدنة. الآن أتذكر قصيدة محمود درويش "هدنة مع المغول أمام غابة السنديان". ليس الألمان مغولاً ولا أنا دون كيشوت. لقدحدث ما حدث وقال كل واحد رأيه فيما حدث وأنا قُلتُ بدوري رأيي وكتبته أيضا. لا أتنازل أو أتراجع عمّا كَتَبتُ، ولكن لا بدّ من عقد هدنة ما، صلح ما مثل الصلح الذي عقده الفلسطينيون مع الاسرائيليين، على الرغم من أنه صُلحٌ هش لم يسفر، حتى الآن، عن شيء.

* * *

أتذكر هذه الأيام، وأنا هنا، كيف يعيش ابي ويحيا: جلوسٌ في المنزل. مشاهدة التلفاز وتكرار الاسطوانة التي يحفظها غيبا. تُرى لو كان أبي يعيش في بلد مثل هذه، أو لو كان يعيش على

شاطىء البحر في يافا المدينة التي طرد منها، هل كان سيشعر بالملل الذي يشعر به.

وهنا أمدحُ البرجوازية، لا لأنها الأفضل أو الأسوأ، بل لأن البرجوازيين يعيشون الحياة التي ينبغي أن يحياها المرءُ، وهنا أتمنى أن يحيا الجميع حياة البرجوازيين.

حدثتني المرأة التي التقيتُ بها يوم السبت أنّ هناك، هنا، من هم بلا مأوى، وحين سألنا متسكعٌ عن مبلغ من المال، طلبت المرأة منّي أن انقده ماركاً. أعتقد أن هؤلاء قلة قليلة، واذا صحّت الاحصائية التي تقول انّ ٢٠% من سكان العالم يتمتعون بـ ٨٠% من خيرات الأرض، فان هذا المتسكع ليس سوى كسول ينبغي أن يلفظه مجتمعه. وحين ألاحظ كيف يحيا الناس هنا أصدق تلك الاحصائية. يفطر أبي الفول يومياً، ويتعشى الجبنة البيضاء، ويحتار غالباً في نوع الطعام الذي يمكن أن يلتهمه، ولا يجد المرء في العالم الثالث سوى ما يبعث على السأم والملل. لقد خلق الله أوروبا جميلة، وأتمّ أهلها ما بدأه الخالق. "١٩٩٦/٧/٢٩ اليوم الأول في السيمنار".

في السيمنار رأى فتاة ألمانية تشبه بربارة التي كتب عنها عادل الاسطه في " تداعيات ضمير المخاطب ". كانت الفتاة ترتدي شلحة سوداء اللون، وقد تركت الفتاة الجانب الأيمن منها يبرز لتقول له ان ما كتبته عني ليس صحيحاً. ان رقبتك سوداء ، ولم يلتفت اليها كثيراً. قررّ ألا يبدأ الحديث مع أية فتاة ما لم تحادثه، إلا اذا كانت هناك ضرورة. تابع حركاتها وهي تتحرك في مكتبة قاعة الاستشراق. نظر الى بشرتها فرأى بعض بقع حمراء ذكرته بتلك التي رآها على كتفي بربارة، وتذكر عبارات بربارة: " لاتخف من هذه البقع الحمراء " قرأ ساعة أو يزيد ثم سار في الممر فرأى كاترين. تذكر ذلك المساء الذي انفقه في غرفتها، وتذكر منظرها وهي تأكل الموز بشهية، ولما غازلها ورأت الصغير قالت: ليس كله تماماً. وسألها ان كانت مازالت تدرس، فأجابته أنها مساعدة بحث وتدريس، وأنها تساعد استاذ

الاستشراق. لقد كانت، اذن، على صله به منذ زمن، وكان يومها قد خمّن أنها على صله مع جماعة ما، لكنه لم يحدد تلك الجهة بالضبط.

وحين أفاق في صباح اليوم التالي، صباح ٧/٣٠ مارس عادته اليوميه، وجلس يدون ملاحظاته :

" رأيت، أمس، في قاعة الاستشراق، كاترين وفتاة اخرى أجمل منها بكثير. هل تتكرر اللعبة ؟ هل يريدون أن يعرفوا إن كنت أترك غير الجميلة لأبحث عن الأجمل. ربما. لقد أطلقوا علي في الضفة لقب سعيد، وهذا الأسم يذكرني بابن خالتي سعيد، الذي تزوج غير مرة، وكان السبب في ذلك، في المرة الأخيرة، البحث عن الأجمل، ويذكرني أيضاً بسعيد بطل رواية اميل حبيبي المتشائل، سعيد الذي يتغابى ويتظاهر بما ليس فيه (كنت أحسبك حماراً فاذا أنت أحمر).

وأمس أيضاً جاءت تلك التي تشبه بربارة. كنت أتساءل حين تظهر طرف الشلحه التي ترتديها، وبخاصة حين تظهر طرفها الأيسر، إن كانت تقصد أن رقبة بربارة هي السوداء ام رقبة زوجتي. كنت أعرف أنهم يريدون ان يعرفوا من الذي يبدأ الكلام مع الأخر. وأدركت أنني أعيش حالة من الحصار. لايصدقون أنني أرغب في مضاجعة امرأة اذا ما تيسر لي ذلك، تماماً كما أنني أرغب في مصادقة إمرأة واحدة خلال هذا الشهر، ولكنني متردد لأنهم سوف يفسرون هذا تفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان. هل سيظل المرء مصاباً بهذه الحالة؟ هو الكابوس بعينه. لقد كتبت في نصي النثري الثالث: " وتحن الى هناك. تحن الى شرب القهوة في مقاهي الرصيف، وتحن الى محادثة السيدات، والى الجلوس على حافة النهر ..... ". فهل كنت مخطئاً ؟ إن تركوني أتصرف بحرية فلن أكون مخطئاً !! ".

"حين يشيرون إلى أنني أسود، أتساءل: أسود لصالح من؟ " . " أحياناً أتساءل : هل كان صدام مخطئاً في حربه ضد الكويت ؟ وهل كان دفاع امريكا عن الكويت دفاعاً عن حرية الانسان

الكويتي؟ واذا كان الأمر كذلك فلماذا تُباعُ في الغرب خمسون مليون نسخه من رواية (ليـون اوريس) (اكسودس)؟ أليس في الأمر مفارقه؟ إنه النفط!! " .

والآن أتذكر ماجرى في الحرب العالمية الثانيه. الآن أتساءل ما الذي جعل الألمان يخوضون حربهم؟ أهي العنصريه وكراهية اليهود أم جشع الاستعمارين البريطاني والفرنسي ؟.

" يتمتع نصف مليون كويتي بمائتي مليار دولار ، فيما العراق مدينة، بسبب حربها المجنونة مع ايران، دفاعاً عن أنظمة القبائل، لا عن حرية الانسان، بأربعين مليار دولار".

" تبدو بون في الصيف ساحرة جداً. أمس أمطرت مطراً غزيراً ، مطراً حرم الناس من مواصلة استمتاعهم بالجلوس على طاولات مقاهي الرصيف. لقد استمتعت شخصياً بهذا. أمس، مساءً استبد بي النعاس لدرجة لم أستطع القراءة ".

" حــالات :

حالة من الشبق. حالة من فقدان الشهيه !! " .

وتبدو له ساعات الصبح هي الأجمل للكتابه". لم يكترث كثيراً لما قرأه في رواية عاموس عوز، فيما يخص ذلك الشخص الذي يقرر كل صباح أنه يدون أحلام الليلـة المنصرمـة. لقد وجد نفسه يدون ما يدور بخاطره منذ اللحظة التي أقلعت فيها الطائرة، وقبل أن يشتري رواية عوز ويقرأها . وما بين صحوه المبكر وانتظار حلول موعد الافطار لم يفعل شيئا سوى القراءة أو الكتابة:

" لا أريد شهادة دكتوراة من أية دولة أخرى. الشهادة من حقي، وسأدافع عن هذا ما استطعت الى ذلك سبيلا، وعلى ألألمان أن يعيدوا تصحيح ما ورد فيها من خطأ فيما يخص تاريخ ميلادي، وعليهم أيضا أن يصدقوها من وزارة الخارجية، وأما جامعة النجاح فلا شأن لها بدراستي. لقد ساعدتني الاستاذة المستشرقة في الحصول على المنحة، كتبتُ في الموضوع الذي أخترته يوم قدمتُ الطلب لمؤسسة DAAD. وتعرف الاستاذة المستشرقة بهذا،

فهي التي نقلت ما كتبته بالعربية الى الألمانية، وهي التي أرسلت الطلب الى المؤسسة". "لقد أوحى لي الألمان مراراً أن ختم الشهادة فيها، وأن لا ضرورة لتصديقها. كانوا يظهرون لي الوجه الآخر للملعقة، الوجه الذي عليه ختم".

وانتابته فجأة حالة وجدانية. تذكر الفتيات اللواتي كنّ يأتين ويحاورنه لينقلن كلامه الى غير جهة. واشتاق الى امرأة لا تنشر اسراره وما كان يوماً شاعراً، ولكنه كتب تحت عنوان "كلام لشاعر لم يوجد بعد" ما يلي:

" سلامٌ للتي عَرَفتني وما أفشَت الأسرار
سلامٌ للتي جاءتني وما قالت غير الذي جرى.
سلامٌ للصبية التي جاءت دونما قصدٍ،
وتلك التي تأتي وتأتي
وليس وراء مجيئها سبب".

قارن ما ألمّ به وهو بالضفة، وما يلّم به وهو في الفندق، بما يلم بالعراق، وكان كتب في رواية " الوطن عندما يخون" ما يلي:

" يدخلون الى المنزل، في أثناء غيابك، ليقرأوا ما تكتب، وليذيعوا محتواه حتى يكرره الآخرون على مسمعك لتعرف ان كانوا فتحوا المنزل في اثناء غيابك".

ورثى لحالته وحالة العراق، واستبدّ به الحزن، ففاضت مشاعره بمقطوعة عنوانها "أنا والعراق سواء" ونصها:

" يدخلون الى العراق ويدخلون
يدمرون ما باعوا وما صنعوا
ويدمرون الذي خلقوا:
صدامَ والقوة والشعب الذي من قوته ربحوا.
لو كان هذا العدل عَدلاً
لما باعوا سلاحاً،
ولا الى جانبه، من قبل، قد وقفوا".

وحنّ الى طفلتيه اللتين لم يتكلم معهما منذ زمن، واشتاق اليهما، ولكنه كان مضطربا، وفكر عميقا، وتساءل كثيراً وكتب: شيء ما في داخلي، شيء عميق يحرك فيّ رغبة الحديث مع الطفلتين، وشيء ما أيضا يمنعني، فما الذي سينتصر في النهاية: الأبوة أم الموقف؟".

وأخذ يسترجع صورة بون قبل خمس سنوات، ويقارنها بما هي عليه الآن، وتذكر أشياء رآها وأخرى سمعها، ودّون، قبل أن يحين موعد الفطور ملاحظات متنوعة أوردها تحت عنوان "ملاحظات" و سوف ابيح لنفسي هنا إعادة صياغتها أو كتابتها بطريقة مغايرة، ولكنني لن أغفل أية فكرة من أفكارها.

لاحظَ مثلاً أن عدد غرف الهواتف قد تضاءل عما كان عليه، فسأل العائلة الألمانية التي جلست الى جانبه عن سبب ذلك، وكان يعتقد أن انتشار البلفون هو السبب، ولكنه لم يشاهد هذا الجهاز الاّ مع الشرطة، فحمد الله لأن أهل الضفة أكثر تقدماً من الألمان وأوفر مالاً، اذ تكثر البلفونات بأيديهم كثرة النساء الحوامل في شوارع نابلس، وتقل بأيدي الألمان قلة النساء الحوامل في ألمانيا أيضا. وعزا ذلك الى صمتِ الألمان وتجهمهم، فلو كانوا مرحين لَكَثُرَ كلامُهم وكَثُرت بلفوناتهم التي يصنعونها ويصدرونها الينا.

وتذكر ذلك اللقاء الذي عقد في صيف ١٩٩٠ في جامعة بامبرغ، وقد مولته المملكة العربية السعودية. واسترجع ما قالته له زوجة أحد المشاركين يوم علمت أن المسؤول السعودي الذي حضر جلسة الافتتاح قد استأجر (سويتا) كاملاً في أحد فنادق (نورنبرج). ولم يَرَ في سلوكه، خلافا لها، تبذيراً للأموال قَدرَ ما رأى فيه دعماً للاقتصاد الألماني. وتساءل، وهو في بون، عن السبب الذي حال دون أن يكتب مقالاً في هذا الموضوع، يمدح فيه - أي في المقال- العرب ويذم الألمان الذين يرفضون كَرَمنا ويعتبرونه حماقة.

"تذكرني الجميلة ذات الشعر القصير والذنب المعقود من خصلة شعرها، تذكرني هذه التي تعمل مساعدة بحث في قسم الاستشراق بـ نينا. أتساءل، وأنا ألتفت الى الشلحة الخضراء التي ترتديها احداهن وتظهر طرفها جهة الرقبة اليمنى، واستعين بما قرأته في النقد الأدبي: النص مثير والاستجابة متعددة. في الثقافة الاسلامية هناك تحذير من خضراء الدِمَن، والخضر عند الألمان هم الذين يقولون الحقيقة. انهم الشجعان الأكثر جرأة. الرمز ثابت والمرموز اليه متحرك. الدال والمدلول. ألأول يسحر، هكذا يقول البنيويون". " صباح ١٩٩٦/٧/٣١".

وأفاق صباح ١٩٩٦/٨/١، وهيأ أغراضه لكي يغادر الفندق ويقيم في غرفة في منزل الطلبة، وكان المسؤول قد أوجد له غرفة في منطقة (تانين بوش - الوسط)، ولم يفرح لذلك، لأنه كان يرغب في أن يقيم في غرفة من غرف منازل الطلبة الواقعة في وسط المدينة، حتى يعود اليها ظهراً ويستريح، ليواصل القراءة، بعد الظهر في المكتبة العامة. وكانت المواصلات الى (تانين بوش) متوفرة وسهلة، ولكنه كان يكسَلُ حين يصل اليها، ولا يعود، الا نادراً، الى وسط بون.

وألقى بعض ملابسه الرثة التي أخذها معه في القمامة، وارتدى من الملابس التي اشتراها، وكان يحتار وهو يشتري لكثرة العروض التي كان يرى فيها ثراء ذلك العالم. ذهب الى الحمام واستهلك الماء بلا تفكير، خلافاً لما يفعله في منزله، لا لأن الماء بلا حساب، وانما لوفرته في بلاد تكثر الأنهار فيها لا المجاري، وجلس على كرسي طاولته، ودوّن ملاحظاته الأخيرة التي كتبها في الفندق، وأدرك أن من في الفندق لن يصوروا اليوم أوراقه هذه لأنه سيأخذها معه، وان كان يعرف أنهم قرأوا كل ما كتب قبل اليوم وصوروه أيضا. ولقد أدرك هذا اذ لاحظ أنّ هناك ورقتين تلتصقان ببعضهما البعض، ويبدو أنّ مادة ما قد تركت أثرها عليهما. وكتب:

" منذ صباح الأمس وأنا أفكر في الكتابة عن موظف الفندق وموظفته تذكرت وأنا أنظر الى وجه الموظف، ولعله صاحب الفندق، تذكرت السيد فونك. يتقارب شكلاً الرجلين الى حد كبير، وكان الموظف، مثل السيد فونك، صموتا. ولقد سألته يوم وصلت الى المكان عن امكانية المبيت، فرحّب بذلك واتفقنا على أن أبيت ليلتين مقابل ٧٥ ماركاً لليلة الواحدة، حتى اذا ما طالت المدة دفعت ٦٠ ماركاً، وانفقت في الفندق خمس ليال فقط. كانت الغرفة صغيرة، ولكنها، الى حد ما، مريحة. ولم ألتفت كثيراً الى شكل الفندق. فكرت أن أعدّ الدرجات، وأن أتتبع شكل الدرج، ولكنني لم افعل. لقد كنت أكتفي بالاستمتاع بمنظر الجمال، وكنت أرى في وصفي له تقليلاً من قيمته الجمالية. أعترف بأنني أخفق في وصف الأشياء وصفاً دقيقاً.

كنت وأنا في الغرفة أنظر أحياناً من النافذة لأرى المباني المحيطة بالمكان: رقم الغرفة 15، وتقع في الطابق الثالث، وأحيانا كنت أصغي الى أصوات لا أفهم منها شيئاً، أصوات مصدرها رجل وامرأة وطفل. لقد خيّل الي أنهما كانا - أي الرجل والمرأة- مسرورين معاً. ما لفت انتباهي حقاً هو الرافعة التي كتب على جزء منها (Peiner) (متوجع، معذّب، دقيق غاية الدقة) وعلى جزء (Hochtief) (عال عميق). وكان ثمة مكان في جانب منها بدا كما لو أنه غرفة. أحيانا كنت أسرح في خيالي، كنت أتخيل أن هناك آلة تصوير مسلطة على الغرفة، ولكي أواجه هذا - ان كان- فقد كنت أخرج صغيري واداعبه، لعلهم يصورونه نائماً أو قائماً.

لقد بدا صاحب الفندق هادئاً جداً. يأخذ المفتاح حين أغادر ويعيده عندما أعود، وكنت ألاحظ ما بيده من أشياء، وبخاصة القلم الذي كان يكتب فيه. لقد رأيت انواعا عديدة من الأقلام؛ ثمة قلم بدا شكله أحمر اللون من الأعلى، فيما كان لونه من الوسط أبيض، ولونه من الاسفل أحمر، وأخذت أراقب حركات صاحبه، ظاناً أنه يعرفني معرفة جيدة، ويعرف عنّي كل شيء. لم نتبادل الحديث

اطلاقاً. ثمة عبارة يتغير ايقاعها وتتغير مفردة منها اعتماداً على زمن قولها : صباح الخير، مساء الخير، نهار سعيد.

ولقد بَدت لي موظفة الفندق امرأة لطيفة جداً. تذكرت السيدة ألف نون في أول لقاءاتي بها. كانت الموظفة ترتدي غالباً ملابس سوداء اللون: القميصُ والتنورة، وقد زاد هذا اللون جمالها جمالا. كانت امرأة في الخامسة والأربعين أو في الخمسين، ولكنها بدت أنيقة ومشتهاة ايضا. واصغيت ذات مساء - حين كانت في الفندق وحيدة، أو هكذا اعتقدت للهدوء الغريب- اليها وهي تستخدم آلة طباعة. لقد فسرت ذلك قائلاً: تريد أن تقول : لَكَ طابعة. وقلت أيضا: لعلها تقرأ أوراقي هذه، كتابتي هذه، خربشاتي هذه، وتعتقد أن هناك من يعيد صياغتها.

سوف أكتب، فيما بعد، ملاحظاتي عن هذه المرأة، وسأكتب واصفا مكان الافطار، والناس الذين جاؤوا وجلسوا وماذا كان يتم بينهم من أحاديث، وسوف اصف المكان الذي كنت أجلس فيه، المكان الذي يقابل الحديقة. لو جئت مرة أخرى الى بون فسوف اقيم أياماً معينة في الفندق هذا. لقد كنت ارغب في معرفة اسم الموظف واسم الموظفة، لكنني ترددت في السؤال. سوف اسألهم هذا الصباح، هذا الصباح الذي سأغادر فيه فندقهم".

ولكنه لم يفعل، وكل ما عرفه عن هذا أنه قرأ الاسم المطبوع على الايصال الذي استلمه واحتفظ به "المالك: . J. +M“ Michel. وخرج من الفندق بعد أن تناول طعام الافطار. جلس في ساحة الجامعة حتى ينفق ساعة من الوقت ليُغادرَ بعدها الى منزل الطلبة، وفي هذه الأثناء أخرج دفتره وقلمه وبدأ يشعر ويدون ملاحظات:

" زمن للحرب وآخر للسلم
زمن للحب وآخر للجد
فهل يدرك السادة هذا ؟"
" تبدو ساعات الصبح في هذا البلد هي الأجمل:
حديقة الجامعة وأشجارها

مقاعد الرصيف وشلالات المياه
هدوء الصباح ولحظة الخلق
رائحة القهوة ... والسيدة الجميلة".

" الرجلان اللذان كانا يتحدثان هذا الصباح في صالة الافطار في الفندق، كانا يتحدثان، بصوت مرتفع قليلاً، عن السوق الأوروبية المشتركة. فهل قصدا أن أسمع؟ ولم أكن ألتفت الى الكلام وحسب. كنت أتابع حركات أيديهما. لقد ظهرا لطيفين جداً."

" الساعة الثانية ظهراً. ساحة الجامعة في بون. الساحة الجميلة الساحرة صيفا وشتاءً، صباحا ومساءً . جلست على مقعد أتامل المارة والجالسين ايضا. وفجأة جاءت فتاة نحيفة طويلة جدا تشبه قريبة لي. ابتسمت وسألتني ان كان بامكانها الجلوس الى جانبي فرحبت. اخذت، للحظات، تبحث في حقيبتها وأخرجت كتابا وبدأت تقرأ، فيما وضعت في حجرها ما يشبه الكتاب الصغير، وكان لونه اخضر ولون الكتابة الالمانية عليه ابيض، اما الكلمة الرئيسية فكانت PONs وكان لونها نيليا. اخذت اتأملها واتابع حركات اصابعها: الخنصر والسبابة. وفيما هي تقرأ اخذت اكتب واصفا ما يجري. لقد قلت لها انك تشبهين الى حد بعيد قريبة لي.

كانت ترتدي قميصا سكري اللون وتنورة كحلية وأخذت تلمس بطة رجلها لمسا ناعما جدا. اعترف بأنها كانت شهية. ولقد تذكرت وأنا أنظر الى سيقانها (أناتول فرانس) وما أورده توفيق الحكيم عنه في روايته "عصفور من الشرق".

نظرت الى اسم الكتاب (Rainbow) والى اسم المؤلف (D.H. Lawerence) وسألتها عن معنى هذه المفردة الانجليزية، فأجابت (Regenbow) أي القوس. ولاحظت أنها كانت تضع ورقة بين صفحات الكتاب رسم عليها قطة حمراء، ولما غادرتني قالت: الى اللقاء، فصرخت: رورو الكذوبةُ لماذا تُطَلُّ عليّ من بعيد؟.

وانا في الكافتيريا، قبل ساعة، كنتُ أتخيل الجميع يحاورني. لقد أصابتني هذه الحالة في أماكن البيع. لقد تخيلت نفسي في نابلس" ١٩٩٦/٨/١".

ويجلس صباح ٨/٢، على كرسيه أمام طاولته وشباك غرفته ليدوّن أيضا ملاحظاته. يتذكر زيارة الأمس التي أنجزها. لقد اجتمع، من جديد، مع مارتن وجيردة، وتناول معهما طعام العشاء. ولم يحتر، قبل أن يذهب اليهما في الموعد المحدد تلفونيا، في الهدية التي سيأخذها. كان، وهو في الوطن، يفكر في الذهاب الى القدس واشتراء، بعض التحف، ولكن القدس كانت بعيدة والسفر غير مؤكد. ذهب الى مكتبة (Buchladen 46) واشترى رواية اميل حبيبي " الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل"، وواصل سيرهُ باتجاه المبنى التجاري. اشترى زجاجة نبيذ، ونصف كيلو قهوة وسار باتجاه (Usenerstrasse) . قرع الباب ودخل ورأى جيردة ومارتن وكأن السنوات الخمس أيامُ خمسة.

" أمس، مساءً، زُرت مارتن وجيردة، وجاء فيلكس أيضا. شربتُ معهم كأسَ نبيذ وتناولتُ طعام العشاء، وتحاورنا في أمور كثيرة. تذكرت الكلب وأخبرتهم عن القصة التي كتبتها تحت عنوان " كأس نبيذ حزناً على موت الكلب"، وعلمت أن ابنتهم تعكف على ترجمتها. تشعّب الحديث وأصبح ذا شجون. علمت أن فيلكس يقيم في المدينة نفسها، في بون، في غرفة بعيدة عن منزل أهله، علماً بأن منزل والده يحتوي على غرف لا يقطن فيها أحد. وعلمت ايضا أن سابينا تقيم في شقة في بون، على الرغم من أنها غير متزوجة. وليس، في هذا الأمر، لديهم ما يثير الدهشة. قال لي مارتن: يريد كل واحد منهما أن يستمتع بحياته، وأن يشعر بأنه مستقل. وتابع: انهما يأتيان أسبوعيا، وقد يأتيان في الأسبوع غير مرة، واضاف: وعلى العموم فالاسرة سعيدة".

" الفتاة الألمانية التي شاهدتها، أمس مساءً، في منزل الطلبة ذكرتني بطالبة الأدب الألماني في (بامبرغ) : الكسندرا. لقد كانت الفتاة مشتهاة، بلوزة خضراء وتنورة قصيرة لونها بني،

سيقانٌ بيضاء وشعر اشقر ينسدلُ على كتفها، ولمّا سألتها ان كانت تقيم هنا أجابت: مجرد زيارة لصديقي. تركتها في المطبخ تجلي الصحون، ولكنها أخذت تفتعل في سلوكها فصدرت عنها ضجة بدت لي بوضوح أنها مقصودة. فتحت باب الغرفة وسألتها ان كان المرء يصغي دائماً الى مثل هذا الضجيج، ونظرت، من جديد، الى حركة يدها اليمنى".

" الغرفة التي أقيم فيها كان يقيم فيها طالب بدا لي من خلال اسمه أنه يهودي، وتساءلت عن سرّ تأجيري لها دون غيرها، ولمّا حاولت نزع اسمه سقطت قطعة الزجاج الملصقة على الجدار:

"لا تكره اليهود وتكره الاحتلال،
" هكذا يا سادة أقول"

وتذكرت بريخت وما كتبه:

" على الحائط كتابة بالطباشير
" هم يريدون الحرب"
والذي كتبها خَرّ صريعاً".

ووجدتني أكتب ما أقوله للذين أحاورهم حول رأيي في الحل السلمي:

" الحل الذي جرى خرى !!
لا نريد أن نرمي اليهود في البحر،
نريد الرجوع الى مدننا
ونحن من رمي في الصحراء".

" تستبد بي الرغبة، منذ فترة، لقراءة روايتين: رواية تيسير سبول: "أنت منذ اليوم"، ورواية محمد عيد "المتميز". وكنت أرغب، وأنا في الضفة، في قراءتهما".

" يذكرني رقم الغرفة هذه برقم الغرفة في مبنى (بازل تور) في (فرايبورغ). لقد أقمت هناك لمدة شهرين، وكان ذلك يوم تعلمت اللغة في معهد غوتة. كان الامتحان النهائي مهزلة، لا لأنني رَسبتُ فيه، وانما لأن المعلمة تركت القاعة سانحة الفرصة

للطلبة بالغش. ولقد أخذ هؤلاء ينقلون عن بعضهم بطريقة عجيبة. لم يكن الذين نجحوا الأجدر، وهم يعرفون هذا، وقد فوجئوا أنفسهم بالنتيجة. الغريب أنني كنتُ في الامتحان الأول الذي عقد بعد ثلاثة أشهر من الناجحين قليلي العدد. "لقد أحبت المعلمة الشاب البرازيلي سيزار، ، وقد لاحظ جميع الطلبة ذلك، فهل غضت الطرف لهذا السبب؟".

" مشروع قصة قصيرة"

حين أعود الى الضفة سوف أكتب قصة قصيرة عن تلك الفتاة الجميلة جداً، الفتاة التي جاءتني ذات مساء لتسألني، وكنت واقفاً في مطعم الطلبة، ان كُنتُ أستطيع مَنحها تذكرة لتتناول العشاء. لقد أخذت تشرح لي عن وضعها البائس وعن فقر أهلها، ولم أتردد في اعطائها تذكرة. ودعتني وأخذت عنواني ووعدت أن تزورني لتعلمني اللغة. ولقد شيعتها بنظراتي ورأيتها تعطي التذكرة لرجل متسكع. وما زلتُ أنتظر زيارتها".

"تقليد : " على هذه الأرض ما يستحق الحياة " محمود درويش:

جمال الطبيعة، اشراقة الشمس، امرأة جميلة،
الصحو المبكر واكتراء القطار السريع،
تناول الافطار، شرب القهوة على قارعة الطريق،
رؤية العمال فرحى يتحدثون، مشاهدة المرأة العاملة
وهي تأكل في القطار،
ركوب الطائرة، مراقبة المتوسط من الأعالي .. الخ.. الخ".

" تكرار لما ورد في نصي " تداعيات ضمير المخاطب" و " ليل الضفة الطويل":

" الناسُ في بلادنا تقول: الماء والخضراء والوجه الحسن.

وأنا أقول: الناس في بلادنا تَحِنُّ الى اوروبا".

" في نهاية نيسان ١٩٩١ تتبعتني، بطريقة لافتة للنظر، فتاة جامعية تدرس في جامعة (بامبرغ)،وقد دعتني، وأنا في مطعم الطلبة، الى أن أشرب القهوة في غرفتها، في منزل الطلبة الذي أقيم فيه، وكررت دعوتها ونحن معا في محل بيع المشروبات القريب من السكن، ولمّا زرتها في غرفتها لاحظتُ أن جدران غرفتها مزينة بصور مثيرة جنسياً. لم أحاورها طويلاً، لقد غادرتُ لأنني دخلتُ معها في الموضوع مباشرة، وسرعان ما اكتشفتُ أنها غير بريئة.

في اكتوبر، وأنا عائد من حفل تأبين عبد اللطيف عقل، الذي أقيم في رام الله، جلست الى جانب طالبتين درستا في جامعة بيرزيت، وكانت احداهما متخصصة في الأدب العربي، ووجدت نفسي مسوقا الى الحديث معهما، ولمَا لاحظت شابا ذا عضلات قوية يزمجر توقفت عن محادثتهما ظانا أنه قريب لأحداهما أو على علاقة مع واحدة منهما، ومع ذلك فقد أوقف السيارة في منتصف الطريق وأخذ يهددني. عرفت من الرجل الذي تدخل في الأمر أن هناك تكليفاً من القوى الوطنية يطلب منه فعل ذلك، ولمّا راجعتُ أحد المهمين في حركة فتح ابلغني أن السبب في ذلك يعود الى كتابتي نص " ليل الضفة الطويل". فيما بعد أخذت الحركة تشيع أن السبب في التعرض لي يعود الى مغازلتي الطالبتين. الطريف في الأمر أن أبرز عناصر الحركة تعشق وتتغزل وتقيم علاقات مع نساء.

الآن لا أعتقد أنني كنتُ مخطئاً فيما كتبته عن تسخير الفتيات من أجل الايقاع بي، لقد بدأها كارل ومارسها كثيرون. لا ليس ما كتبته ضرباً من الوهم. الحقيقة موجعة. انني أرغب في اقامة علاقة مع فتاة، ولكني لن ألجأ الى طريق الاكراه اطلاقاً. ثمة حوار وشرب فنجان قهوة ودعوة الى الغرفة وملامسة يد وملاحظة رد الفعل. تدرك أندريا التي عرفتها في توبنغن هذا.

لقد تصرفتُ معها بأدب جم. ليس هناك لذة في ممارسة الحب دون اعجاب" " ١٩٩٦/٨/٣".

وكتب في اليوم نفسه أيضاً:

" لو كنتُ، وأنا في الضفة، أدون ملاحظاتي منذ عدتُ، كما أفعل هُنا لأنجزتُ نصاً روائياً أكثر نضجاً وأكثر دقة في وصف الواقع المرعب الذي عشتُهُ. أعترف بأن رُعبَ الواقع في الضفة لم يقل عنه في العام الأخير من اقامتي في ألمانيا".

" الغرفة في منزل الطلبة جيدة. انها لا تجعل المرء يشعر بالسأم، ولكن المطبخ لا يبدو حيوياً، خلافاً لما كان الأمر عليه، في فرايبورغ وبامبرغ".

" ٧/٣١ زرتُ مبنى مؤسسة DAAD. التقيت بالسيدة المسؤولة وبسكرتيرتها التي بدت لطيفة جداً. هل كانت السيدة المسؤولة تمثل دور ألف نون وسكرتيرتها تمثل دور فولتا. لقد تكلمت معهما بالألمانية ورفضتا تمديد مدة البعثة".

" يقول الوجوديون: "الانسان موقف"، وأنا أيضا أقول".

" لابُدّ من التعلم على استخدام الكمبيوتر. هذه حقيقة اكتشفتها هذه المرة هنا. لقد تغيّر نظام المكتبة كله. لا أدري لماذا أتباطأ؟ أنا رجل كسول فيما يخص التكنولوجيا. انني انسانٌ بدائي جداً.

١٩٩٦/٨/٤

"صباح الأحد
المبنى هادىء
كأن لا أحد".

أول صباح أحد ينفقهُ في المبنى، ولأول مرة منذ فترة طويلة لا يحتسي القهوة صباحاً. هذه القهوة المرعبة. القهوة التي تنيم الصغير أو تنهضه، القهوة التي قد تسبب الأرق، وقد تجعله يصحو ليلاً، وقد ينجم عنها امساك مُزمن، وقد تجعل الصغير يتضاءل لدرجة لا تتصور. ولم يكن حجم الصغير نائماً يُزعجه، فهو حين ينهض ويقف يحتاج الى تعويذة تحميه من شر الحاسد اذا

حسد، ولكثرة الأفواه التي قبلته أحتاج الى أخرى تحميه من شر النفاثات في العقد.

وحيداً يجلس وينظر الى الشجرة، ثمّ سرعان ما يذهب الى الحمّام ليمارس عادته المفرحة، ويعود الى غرفته. يتمدد على السرير، يقرأ قليلاً، وينهض ليكتب.

" بين الغرفة التي أقيم فيها وبين غرفة ماريانو يفصل المطبخ والحمّام. لقد رأيتُ (ماريانو) الجمعة مساءً. كانت في الممر واقفة وكان معها شخصان بدا لي أنهما صيني و صينية أو من تلك البلاد القريبة من الصين. كانت ماريانو ترتدي بنطالاً لونه أبيض ذكرني ببنطال التايت الأبيض الذي كانت ترتديه تلك الفتاة البرجوازية من نابلس. ولقد بَدَت مؤخرة ماريانو أصغر حجما من مؤخرة الفتاة النابلسية. فجأة هَمَستُ: يا سبحان الله ها هي نابلس تسعى. ولم أبحلق كثيراً في مؤخرة ماريانو. أغلقت باب حجرتي وذهبت لأنام قليلاً. مساء خرجت أتنزه فأبصرت ماريانو وزميلتها فيكتوريا، وكانت الثانية ترتدي شلحة خضراء يغطيها لباسٌ لا يختلف شكلاً عن شبكة صيد السمك. رأيتهما جالستين على مدخل المبنى، ولم أكلم أيا منهما. سألت طالباً عربياً عن غرفة التلفاز، فابلغني أنّ عربياً أقام حديثاً في المبنى سرقه قبل يومين، ولم أحدث العرب كثيراً. تركته وتمشيت قليلاً ثمَ عُدت الى الغرفة.

في اليوم التالي تحدثتُ مع ماريانو. كان صوتُ المذياع مرتفعاً جداً، وبدا لي أنها فَعَلت ذلك عن قصد. ذهبت الى المطبخ فرأيتها سيدة جميلة على قدر كبير جداً من التناسق. كانت ترتدي (شورتا) قصيراً ابرز ساقيها. طلبتُ منها أن تخفض المذياع، ثمّ تحدثنا معاً. عرفت أنها تدرس الطب، وأنها ستسافر بعد فترة الى جزر الكناري حيث يقيم والداها، وأبلغتني أنها تعمل في الاجازة. وسألتها لما رأيتها تتكلم الألمانية تكلم الألمان لها ان كانت ألمانية، فأجابتني بأن والديها ألمان. وأخذت أحتار في أمر ماريانو فهل كانت تحاورني نيابة عن تلك النابلسية التي تشبهها؟ وأخبرت

ماريانو أنني سأقيم هنا لمدة شهر، كما أخبرتها عن موطني وعن اسمي، ولم أر في ذلك ما يسبب لي اشكالاً، فماريانو تعرف من أنا وتعرف عني ايضا. ولما قلت لها انني فلسطيني أخبرتني أن ثمة فلسطينيا يقيم في زاوية الطابق، وهو شخص كنت رأيته يوم أقمت وسألته عن رقم الغرفة ولم أخض معه في الحديث. تركت ماريانو التي ذهبت بعد لحظات لتأكل اللحم المشوي مع زميلاتها وزملائها، وجلست في غرفتي أقرأ غير ملتفت الى اصوات الشابين اللذين كانا يتحدثان في غرفة المطبخ المجاور لمطبخ مجموعة الطلبة الأخرين. مساءً لمحتُ ماريانو من جديد ولم يحدّث ايٌ منا الآخر. قلت لا بأس من محادثتها اذا ما دعتني لكي نشرب القهوة معا. وخاطبت نفسي، ودونت هذا أيضا: ان عنصر الوصف والتدقيق في وصف الملامح الخارجية للشخوص هو من سمات الرواية البلزاكية، فلا تكترث. الآن روب جرييه: نحو رواية جديدة".

ولليوم الأول منذ وصوله لا يتناول طعام الافطار ايضا. ذهب الى المطبخ الخالي وجلس على الطاولة وحيداً. أشعل المذياع وأخذ يصغي الى الموسيقى. شرب عصير التفاح وأكل قطعة الكاتو، وأخذ يتصفح جريدة قديمة، ثم سرعان ما عاد الى غرفته. جلس أمام الطاولة وأخذ يشاهد الشجرة من جديد. تفحصها جيداً وتذكر الفندق :

" ثمة ميزتان لاقامتي الاسبوع المنصرم في الفندق: الافطار والقرب من سوق المدينة، ولكنّ هذه الغرفة تشرح الصدر كما يقولون".

" يعرف السيد المسؤول عن منزل الطلبة في (بامبرغ)، كما تعرف السيدة التي كانت تنظف البناية أنني كُنتُ لطيفا جداً مع سكان المبنى".

" الذين يزعمون أنني واهمٌ فيما أكتب هم الواهمون".

" لا انكر انني افدت كثيرا من دراستي في المانيا، وبعض الدراسات التي انجزتها ما كانت لتتم لولا وجودي هنا". لا تحن الى ما مضى، تحن الى ما سيأتي،،

"أمس، وأنا أتجول في شوارع بون، توقفت طويلا لاصغي للموسيقار القادم من امريكا اللاتينية. ولم اتوقف كثيرا امام البهلوان، فثمة بهلوانات كثيرة في هذا العالم،، .

"تحتاج زيارة المدن الى اصدقاء، ويفضل ان يكونوا من الاناث. اعرف كيف تكون المدن يوم الاحد، وربما شذت برلين وميونخ وهايدلبيرج. تكون المدن هذا اليوم خلوا من الحركة".

حين صحا من النوم، وكان ذلك يوم الاثنين الخامس من آب، بدأ يدون ما رآه في نومه، وقد بدأ الكتابة بالتساؤل التالي:

"تتساءل عن سر نجاتك:
اهو العقل المتقد ذكاء
ام تلك رعاية ربانية ؟"

"تقل الطائرة البيضاء ركابا ذوي لباس عربي خليجي: دشداشة بيضاء وحطة بيضاء وعقال اسود. الطائرة البيضاء حمراء اللون من الاسفل، وقد كتب عليها K.L.M بالابيض. لا تتحرك الدائرة السفلى، شباك مرفوع يطل منه الركاب، وثمة مطبات تحركها للاعلى والاسفل. الطائرة التي تقل الركاب توشك ان تتحطم: هل كانتت الشجرة الباسقة ترعاك من بقايا الطائرة التي تحطمت؟"

"تركز فيرينا كليم على سحر خليفة تركيزا لافتا للنظر، ويعود السبب في ذلك الى عدة اسباب ابرزها كونها امرأة. النسوة هنا يركزون على ادب النساء. هناك دراسة خاصة، في كتاب المدخل الى علم الادب الصادر عام ١٩٩٥، عن الادب النسوي."

الصديق الذي زاره، قبل سنوات عديدة، قال امامه كلمة واحدة، وكان ذلك بعد عودته من المانيا، فنبهه الى امر ما في حياته، وحين جلس ظهرا، في كافتيريا الجامعة، اخرج دفتره وقلمه وبدأ يكتب:

سر الان تعرفيه، وتخفيه،
لان الله اخفاه،،
" حنين الى بون:
ستحن الى هذي الايام
ستحن الى الشارع والمقهى
وتحن الى سيدة الشارع، سيدة المقهى
وتحن الى نهر في بلدك مفقود.
ستحن الى ايامك هذه
وستفتقد الحركة والناس
واشياء لا تبدو صامتة ابدا
ستحن الى غرفتك البيضاء والى طاولتك:
تخربش عليها كل صباح،
وستحن الى الباص وحافلة الركاب،
الى المرأة تجلس فيها بلا خوف،
تتأملها تتأمل عذب الايام وحلو الايام ومر الايام
وتحن، وأنت هناك، الى الله وما خلقاً: الناس وما خلقوا: بون!!،،
" عري:
العري لا يعني يا سيدتي ان تأتي دون ثياب
العري يراه المرء في الكون الكذاب،،
"عمر:
سبع سنين مرت
سبع سنين تكتب فيها أحزانك
تنجز بعض روايات جيدة أو تافهه، لا تدري!
سبع سنين تجلس وحدك ثم تنام،
فهل كان عليك ان تدفع من عمرك اجمله،
لتدافع عن حق والناس نيام،،

"الى روز:
في الحلم اراك سيدة تأتين
في الحلم اراك،
واتبع ظلك
لادافع، يا سيدتي، عن ظلك،
وأسير وراءك،
لكن الحلم، يا سيدتي، مثل العمر:
قصير.،،

ولما غادر كافيتيريا الجامعة ذهب الى مكتبة (بوفير) القريبة من مباني الجامعة، وأخذ يتجول فيها، وهذا ما كان يفعله يوميا. لاحظ ان دور النشر الالمانية المعروفة مثل (سور كامب) و (بيبر) و (فيشر) و (د.ت.ف) سرعان ما تنشر اعمال الكتاب الاسرائيليين مثل عاموس عوز وأبراهام يهوشواع وديفيد غروسمان، وتساءل عن السبب الذي لم تطبع دور النشر هذه اعمال كاتب عربي حصل على جائزة نوبل للاداب هو نجيب محفوظ. وحين جلس مساء في غرفته بدأ يخربش:
"يزور الناس هنا المكتبات كما يزورون السوبر ماركت. تذكرت المكتبات في نابلس، وتذكرت حالة صاحب مكتبة خالد بن الوليد.،
" ٦ / ٨ / ١٩٩٦ ."

واسترجع ما حدث معه في اليوم الاول لاقامته في منزل الطلبة. وكان قد ذهب في الموعد المحدد. القى تحية الصباح على السكرتيرة المسؤولة التي ذكرته ببيبو طالبة الاستشراق سكرتيرة السيدة ألف نون، وكانت هناك امرأة تشبه ألف نون أيضا، وأخبر السكرتيرة أنه المقيم الجديد، فابتسمت له، وأخذت تبحث عن مفتاح الغرفة، وبعد جهد اخبرته بأن المفتاح ضائع، وأنها ستبحث له عن المفتاح الاحتياطي، وطلبت منه الانتظار قليلاً، وبعد عشر دقائق تقريباً، وكانت خلالها مشغولة بالرد على الهاتف، قالت له انها لا تستطيع تسليمه الغرفة الا بعد ساعتين، وتحديداً بعد أن تنتهي عاملة النظافة من تنظيفها، وتساءل ان كانت عرفت أنه ترك

غرفته في الفندق نظيفة ومرتبة، ولهذا أصرّت على تنظيف الغرفة. وفي هذه الأثناء التقى بشاب سوري يافع لم يتجاوز العشرين، ودعاه هذا الى غرفته ليشرب الشاي بدلاً من الانتظار في الساحة وحيداً، الا أنه اعتذر وأخذ حقائبه معه وجلس في الساحة على مقعد خشبي. لم يفكر كثيراً في الأمر. تذكر فقط سؤال السكرتيرة له وطلبها منه أن يبقى حقائبه لديها لترى ان كان يثق بها، وتذكر وجه عاملة التنظيف التي ذكرته باستاذة اللغة في (بامبرغ)، واسمها (فيرينا) وكانت امرأة لطيفة جداً، ظلّ على اتصال معها بعد مغادرتها (بامبرغ) الى احدى الدول الاشتراكية، يكتب لها وتكتب له، وظلت تكتب له حتى بعد عودته، ولكنه لم يواصل. ولم يَرَ السكرتيرة بعد هذا اللقاء، ولكنه هاتفها صبيحة يوم السبت الموافق ٨/٢٤ ليخبرها أنه سيغادر الغرفة، فأبلغته أن يضع المفاتيح في صندوق غرفتها، ووعدته أن ترسل له مبلغ التأمين على رقم حسابه، وهذا ما لم يحصل حتى الآن، فهل حوّلت المبلغ الى حسابها؟ وهل حوّلت (بيبو) سكرتيرة ألف نون ثمن المجلات ايضا لحسابها؟ وكان يعتقد أن الألمان لا يسرقون ولا يغشون ظاناً أن ذلك قِصرٌ على ابناء العالم الجائع، فكم من مرة شاهد مفتش قطار الشوارع يلقي القبض على لبناني أو فلسطيني أو أجنبي صاعداً دون تذكرة، ولم يغير رأيه هذا حتى ألقي القبض، ذات صباح، على امرأة المانية، فحمد الله على ما جرى، وأدرك أنّ الألمان بشر مثلنا يحبون ويكرهون ويسرقون ويوفون بالعهد. وهو الآن، يتساءل عن مبلغ الخمسين ماركاً وعمّا آل اليه، فهل (لطشته) السكرتيرة؟. ولمّا أخذ يدون ملاحظاته كتب:

" مفتاح الغرفة الضائع

"ليسَ بضائع"

وقد أدرك أنها كانت لعبة، وأدرك أنهم في غيابه يقرأون ملاحظاته التي يكتبها، فقال : "عَسسٌ هنا وعسسٌ هناك" وفكر في أن يتوقف عن كتابة ما يشعر به، غير أنه تراجع آملاً أن ينجز، ذات يوم، نصاً نثرياً يبيّن فيه ما جرى معه.

في ذلك اليوم، التقى، وهو في ممر الشقة التي يقيم فيها، شاباً هندياً، وحين عرف أنه عربي دعاه الى شرب الشاي فاعتذر، وحين اختلى بنفسه شعر ببعض الحزن لأنه لم يُلبِ الدعوة، فأمسك بالقلم وكتب:

" الهندي الوديّ يدعوك الى شرب الشاي فتعتذر،
هذا الاسبوع ستشرب معه الشاي".

وكان يلاحظ أن المقيمين في المبنى يقتربون منه قدر اقترابه من مشاعرهم وافكارهم، ويبتعدون عنه أيضا قدر ابتعاده عن أفكارهم ورؤاهم، معتمدين في ذلك كله على السماع. وأظهر له هذا رأي الشعوب في الشعوب ممثلاً من خلال أفرادها وتجربتهم مع بعضهم البعض. تقترب منه ماريانو اذا لاحظت أنه لا يختلط بأبناء الأقليات، ويقترب منه أبناء الأقليات اذا رأوا فيه نصيراً لهم في رؤيتهم للألمان الذين لم يصادق أكثرهم، كما شاهد، الكثيرين من أبناء الأقليات. وكم عجب حين مرّ أمام غرفته ذات مساء الهندي و أدار بوجهه عنه ! لقد كانت الاشاعة يومها تتمحور حول حبه للعزلة وجلافته وابتعاد الآخرين عنه لهذا.

" ملاحظات حول زيارة مكتبة بوفير:

اليوم شاهدت كتاباً لحنان عشراوي لم أقرأه بالعربية ولم أسمع أنه صدر بها. ورأيت كتابا مترجما عن الفرنسية كتبه شخص عن سهى عرفات وعنوانه "أنا من فلسطين" وقد تصدرته صورتها. ومن قبل عرفت أنّ كتاب ريموندا الطويل "بيتي سجني" مترجم الى الألمانية، وقد أهديته قبل ست سنوات الى (جيردة). ثمة اهتمام بنسائنا وما يكتبن ولهذا ترجمت نصوص سحر خليفة".

وفيما هو جالس في غرفته سطعت من الممر رائحة، فكتب:

" رائحة العطر تسطع نفّاذة
وأنت في غرفتك وحيد،
هل كان الباب الآخر يدعوك

أم كان الطُعمَ لصيدِ السمكة"

" السيدة التي تشتهيك، تأتيك".

وغضّ الطرف قليلاً، مع أنه ذهب الى الباب وتركه مفتوحاً، موحيا للسيدة بأن بامكانها الدخول ان رغبَت. وأخذ يواصل تساؤلاته حول الموضوع الذي جا ء ليكتب فيه:

" لقد لَفَتَ (كريستيان سيزكا) طالب الاستشراق انتباهي الى خطأ في ترجمة نص المتشائل. لقد فهم كلمة (أخمر) على أنها تعني أكبر من حمارٌ، وليس هذا ما قصده اميل حبيبي، وانما قصد أن سعيداً شيوعي لا حمارٌ كما كان معلمه يعقوب يظنه. ويبدو أن انجليكا نويفرت والذين ساعدوها في الترجمة وهم ستة، لا يجيدون العربية جيداً".

وقد شغله هذا الأمر فعاد الى ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي، وقد نقلت النص الى الانجليزية، فوجد انها فهمته فهما صحيحاً خلافاً للسبعة، فحمد الله انّ العرب يفهمون لغتهم، وأن ما يقوله بعض المستشرقين عنهم ليس بصحيح، وان كان بين المترجمين للنص طالبان عربيان.

" لقد كَتَبتُ للدكتور Wild في تموز ١٩٩٥ أسأله ان كانت هناك امكانية للعمل في ألمانيا لمدة عامين، ولم يأتني جواب حتى أتمكن من ترتيب أوضاعي في الجامعة، ولو بقيت، الآن، هنا فانني سأعطي الجامعة سبباً لفصلي والزامي بما عليّ من التزام".

" لا يمكن أن يكتب الكاتب بشروط، لأن شرط الكتابة الوحيد هو حرية الكتابة. هذا ما كنت أقوله للذين كانوا يطلبون أن أكتب دون التعرض لهذا أو ذاك".

وأخذ في ٨/٧/ يكتب شعراً فقط، ولم يكن يرى فيه شعراً جيداً، فهو يدرك أنه ليس بشاعر اطلاقاً:

" نقودك"

بيضاء أم سوداء؟

خضراء أم حمراء؟
تعرف أن نقودك بيضاء
وتبصر يدك لتراها
(من كل سوء خالية)"
" رائحة
رائحة اللحم المشوي تتسلل عبر الباب
لا ترغبُ فيها
وتحنّ الى لحمٍ نسوي جذّاب".
" رئيس
السيد الرئيس
ما دُمتُ تخالفه الرأي
ستظلُ في نظره: ابليس".
" صديق
الصديق الذي يخون:
يسلم الشريط والكتابة،
يمارسُ الرقابة
وينشد الأخ الحنون:
فهل تكون؟
لا تكون! "
" في الممر
(الى محمود درويش)
تذكرني أصوات الكعبُ العالي
بمديح الظل العالي،
فأخاطب شاعرها:
الصورة معكوسة يا محمود"
" وحدة أم غاز
ـ هل كانت وحدتُك قاسية
أم كانت رائحةُ الغاز قوية؟
ـ رائحة الغاز قوية!".

ثم أخذ يدوّن بعض ملاحظات نثرية:

" لقد اشتريتُ أمس كتابين لكريستا وولف وتوني موريسون لسببين: لأقرأ لهما بعض ما كتبا، ولكي أجعل منهما سبباً لكتابة مقال يتمحور حول حركة النشر في ألمانيا وأسعار الكتب، ولكي أقارن في الوقت نفسه بين طريقتي النشر عندنا وعندهم، هذا اذا كتبتُ، ذات نهار، شيئاً حول هذا".

وكانت أصوات حذاء الصينية، في اثناء جلوسه في غرفته يكتب، تصل الى مسامعه وتزعجه أيما ازعاج، وحين فتح باب غرفته ليقول لها: يبدو أن هناك مارشا عسكرياً، وأن المعركة قريبة، كانت الصينية قد اختفت. وكثيراً ما كان، حين يصغي الى أصوات مزعجة، يفتح باب غرفته، لكي يوحي للآخرين بأن ثمة من يقيم في هذه الغرفة أو تلك، حتى أن الطالبة الشقراء التي كانت تدرس في (كولن)، وهي طالبة زارتها أمها الروسية، سألته، ذات نهار، وقد رأته يصغي الى صوتها المرتفع: ألا تفعل شيئا؟ فابتسم لها وقال: "لا . انني استلقي على السرير وأبحلق في السقف. هذا كلّ ما أفعله. لقد جئت لى ألمانيا لأمارس هذه العادة". واصوات حذاء صينية هي التي أوحت له بكتابة المقطع الذي أهداه لمحمود درويش، وهي التي ذكرته بقصيدة "مديح الظل العالي".

١٩٩٦/٨/٨"

اذا أراد الألمان أن يمنحوني شهادة الدكتوراة اعتماداً على اتقاني اللغة الألمانية فعليهم أن يطبقوا المعيار نفسه على جميع خريجي ألمانيا، وعليهم في المقابل أن يطلبوا من الاساتذة الألمان الذين درسوا العربية وآدابها أن يتقنوها اتقاناً تاماً: محادثةً وقراءةً وكتابةً. لقد تخرج من ألمانيا أناسٌ كثيرون لا يتقنون لغتهم الأم، ولم يتقنوا اللغة الألمانية على الاطلاق. ويعرف الاساتذة الألمان هذا، وهذا ما كتبته في مقالين نشرتهما في جريدة "نابلس" تحت عنوان "أدب عربي في ألمانيا". وكتبتُ أكثر من هذا حين ذهبت الى أن أساتذة جامعة النجاح، باستثناء بعض المتخصصين في الأدب العربي، لا يجيدون لغتهم الأم قراءةً ومحادثةً وكتابةً.

" لا رغبة في الكتابة"

اقام من على كرسيه، ذهب الى المطبخ، أصغى الى الموسيقى، وجلس ليبحلق في الفراغ. عاد الى غرفته، استرخى على السرير،وفجأة اصغى الى طرقات على الباب. نهض وفتح الباب واذا بماريانو تناديه وتطلب منه أن يشارك في تنظيف المطبخ. طلبت منه أن يلقي بالقمامة خارجاً. ومع أنه لم يطبخ، ولم يستخدم أدوات المطبخ الا لُماما، الاّ انه فعل ذلك رغبة في اشعار الآخرين بأنه جزء من المجموعة. حمل أكياس القمامة وألقى بها خارجاً، ثمّ عاد الى غرفته فيما كانت ماريانو واقفة في الممر وقد تركت باب غرفتها مفتوحاً. تجاذبا الحديث ولم يمانع في الذهاب الى غرفتها، ولكنها أوحت له بأن في ألأمر خدعة. غادر مودعاً، وجلس على كرسي طاولته وكتب النص التالي الذي أهداه فيما بعد الى (هيلموت كول).

" ماريانو
تحيرك السيدة ماريانو
تبدو أحياناً جدّ لطيفة
وأحياناً تبدو ضجرة.
وأحيانا تأتيك
لتأمرك وتترك باب غرفتها مفتوحاً.
وتناجيك،
تحرك اصبعها، وتحرك خنصرها أو بنصرها
لتحذرك من شر يأتيك.
ماريانو تصحو أحيانا بعد الفجر
تلبس روب الحمّام
وتربط شعر الراس
وتعرف أنّها تعرف عنك
لكنك مسكون بالخوف وبالكابوس
اللعنة، يا هيلموت كول، حين يتحول

هذا الكون الى كابوس"

ولا يدري لماذا رأى، في صباح اليوم التالي للسابع من آب، هيلموت كول في شخص آخر، وكأنه يهدده، لأنه لم يدخل الى غرفة ماريانو، بالابعاد.

" أرنب تجارب
(الى اشتيفان فيلد)
يا أنت يا أرنب التجارب
أما قلتَ حين أتيتَ:
تأتي سيدا محترما
وتغادر سيدا محترما
فلماذا، اذن، هذا الذي جرى؟"

" خوف
مسكون بالخوف منذ أتيتَ
ومسكون بالتأويل وبالتفسير"

وتذكر مساءً سكرتيرة معهد الاستشراق في جامعة بون، وكانت امرأة لطيفة جداً، فكتب نصاً قرر أن يهديها اياه:

" كيف تكون ضد الألمان جميعا
وأنت ترى المرأة تبتسم بلطف
حين تقابلك وحين تبيعك أو تدعوك؟"

وتذكر بائعة الفواكة والخضار في المكان المقابل لمحطة القطار. وكانت هذه تتمنى له مساءً سعيداً أو نهاية أسبوع سعيدة، وتناوله ما يريد من بضاعة بفرح واضح، وقرّر مساء الثامن من آب أن يكتب شيئاً عن العنصرية وفعل:

" يكره القومي الآخر
ويلتفت الى ذاته
ويرى فيها ريفاً ومدينة
وحين يجلس في الريف وحيداً
يتذكر أنساب القرية والناس وما كانوا
ويبحلق في القلة والكثرة.

وحين يعود الى بيته
يتأمل اخوته، فيحب أخاه ويكره أخته
ويميز، فيما بعد، بين ابنيه،
وحين يخلو الى ذاته:
يكره ذاته".

وقرر أن يهدي ماريانو نصاً:

" ماريانو
(الى ماريانو طالبة الطب)
ماريانو تدعوك،
لكنها تحرص عليك
فتحاورك اشارياً،
تلوي ماريانو الابهام
وتدع السبابة الى الأسفل"

" الأستاذ الدكتور جورج هيرمان استاذ يمتاز بالجرأة الأدبية، لقد أصغيت الى هذه العبارة (Civil Courage) يوم تحاورتُ وبرنو".

" اذا كان ما جرى معي وهمٌ، فانّ المشكلة الفلسطينية أيضاً وهم".

" وسأذهب الى ما هو أبعد من ذلك وسأقول انّ الهولوكست وهم، وان الحربين العالميتين الأولى والثانية وهم".

" قُلتُ لا بدّ من هدنة، فهل يستجيبون لك؟"

" طلبت منّي السيدة Krüger-Rechmann المسؤولة في مؤسسة DAAD، اذا عُدت قبل انقضاء مدة الشهر، أن اعيد النقود عمّا تبقى من أيام الشهر. فهل تطبق هذا على الجميع؟ وكما أعرف فانّ قانون DAAD يعطي من يأتي في النصف الثاني من الشهر راتب نصف شهر، ويعطي لمن ينفق أكثر من نصف الشهر الثاني راتب شهر. ولكني لم أرغب في مقايضتها مادياً".

" عاملة المطعم تناولك طعام الافطار
وسيدة المعهد تبتسم،

وتحدثك السيدة في الشارع فرحة،
فلماذا يا هذا لا تكتب هذا ؟ "
" أحيانا أخطىء في الجملة عشرة أخطاء،
أحيانا لا أرغب في النطق،
ولا أرغب في الـ ..."

وفيما هو، مساءً، جالسٌ في غرفته يقرأ، اذا بشاب ألماني من الطلبة الذين يقيمون في المنزل، يقرع باب غرفته، وحين أبصره، رآه خارجاً للتو من الحمّام، وقد لفّ المنشفة على جسده، وكان شاباً آية في الجمال، كأنه يوسف الموصوف في القرآن، واذا بالشاب يسأله ان كان يستطيع مساعدته في فتح باب غرفته حيث نسي المفاتيح فيها، وأخذ الشاب يبتسم، فعرف قصده، وعرف أنه مرسلٌ له لكي يختبروا سلوكه نحوه، فاعتذر وعاد الى سريره، ثم سرعان ما قام ودوّن ما يلي:

" سأرفع المفعولَ وأنصب الفاعل
ولا أهلاً أيها السائلُ".

وتذكر ما قاله معين بسيسو، ودونه:

" قُلها ومت
فأنت ان سكتّ مت
وأنت ان نطقت مت
قلها ومت".

واستغرب في التاسع من آب سلوك المرأة العاملة في مطعم الجامعة. لقد ذهب، كعادته، الى الطابق الثالث من مبنى المطعم، وتناول السلطة، وكان في توبنغن يكثر من تناولها، حتى ان أندريا التي لاحظت هذا قالت له انك أرنب، ولم ينزعج فقد خرجت من فمها لطيفة كصاحبتها التي كانت معه لطيفة - ولأول مرة، منذ أسبوعين، تسأله العاملة ان كان يملك هوية جامعية، وقد سألته ان كان غريباً، فأبرز لها هوية المكتبة التي أصدرها مؤخراً، وصمتت المرأة وشدت له ابهامها موحية له أنه دَكَرٌ (صلب).

واستغرب في اليوم نفسه سلوك الموظفة في (Kaufhof) لأنها أخذت منه ثمن كيس (الشيبس) ماركين ونصف، وحين أخبرها أن ثمنه مارك وتسعة وعشرون فِنكا، رَدّت عليه بأن سعر الصغير مثل سعر الكبير، ولم يرغب في ارجاعه أو مراجعتها، فيما أخذ يلتفت الى حركة ابهامها الذي حنته، فضحك في سرّه.
واخذ، مساءً، يتابع أصوات الطلبة وحركاتهم، وينظر الى الأفق، وشعر بضيق ما درى سببه.

" أحيانا أتساءل ان كنت مخطئا في زعمي: أنّ العالم أسود. وأتذكر حروباً وحروباً وحروباً وكراهية عمياء، واقول : العالم أسود".

" الغريب. ألبيركامو"

" لماذا لم أدون ردود أفعال الناس عن تيس جنين، ولماذا لم أكتب قصة عن هذا؟"

" أحيانا أسأله ان كان صبورا أم أحمق

فيجيب وقد ضمّن:

هذا الزمان مشوم كما تراه غشوم
الحمق فيه مليح والعقل عيب ولوم
والمال طيفٌ ولكن حول اللئام يحوم

"من مقامات الهمذاني"

ويضيف:

" العالم يغرق".

" لا تشكو سرّك لأحد، فالله العالم بالأسرار يشكوك".

" هل صوتُ الباب يناديك
أم صوت الباب يجازيك؟"

" لا تكتب، بعد الآن، مشاعرك.
اتركها في الذاكرة ترحل".

" للتي تطرق الباب تقول : أهلاً".

" لقد ترجم نص معين بسيسو "دفاتر فلسطينية" في ألمانيا الشرقية. وترجم فاروق بيضون "يوميات الحزن العادي" لمحمود درويش، كما ترجم " أدفنوا موتاكم وانهضوا" لتوفيق زيّاد.

مشهد القصة القصيرة الفلسطينية في ألمانيا مغطى بشكل جيد، وذلك من خلال اصدار انتولوجيا القصة القصيرة، ومن خلال دراسة (بيرجيت سي كامب) التي تعطي تصوراً جيداً لحركة القصة القصيرة الفلسطينية".

" سر الدنيا:
السيدة تبحث عن مفتاح
والمفتاح يفضّ الاكرة
والأكرة تنتظر الانسان،
الغرفة جدرانُ عارية
قبرٌ دون عظام أو لحمٍ،
فكيف سيخلق ذاك الدودُ اذن،
سبحانك ربي،
الدودة مفتاح الغرفة".

" ١٩٩٦/٨/١٢

ثمة عيون كثيرة تتابع حركاتك. تتعقبك أينما كنت. هل كانت صورتك قبل مجيئك معروضة على شاشات التلفاز؟ هل وزّع أهل بون رسماً لك؟ وهل أصبحت مثل المستشار الألماني شهرة؟ هل أصبحت مارادونا أو هاينرش بول؟"

خاطب نفسه، ولم يدّون هذا الخطاب، ولكنه تذكر ما قرأه في كتاب (ميغيل فرنانديز - براسو) الذي عنوانه " عزلة غابرييل غارسيا ماركيز" الصادر عن دار الكلمة في بيروت عام ١٩٨١، وكان قرأ فيه فقرة ظلت عالقة في ذهنه، وقد وردت في الصفحة الثالثة والستين ونصها:

" هذا ابتهاج أن تسكر في حانة وألا يهتم بك أحد".

وكتب تعقيبًا على هذا:

" يقول لك أحيانا معترفا: لستُ غابرييل غارسيا ماركيز، ولكنّي أشتاق الى أن أجلس في المقهى لأشرب القهوة، دون أن يطلب أحدٌ ما، من صاحب المقهى صناعة قهوة خاصة ذات مواصفات معينة".

وكان قد التقى بصديق له زار في الفترة نفسها ألمانيا، وكان بصحبته فتاة ألمانية، وجلسوا معاً على مقهى رصيف، بدا فيها الصديق سخياً، وهذا ما لم يعرف عنه كما يُشاع، ولم يستغرب كرم الصديق فالجمال الألماني أخّاذ، والعرب، في بلاد الغرباء، محكومون بأن يعكسوا فيها صفاتنا الحميدة، وهي كثيرة أولها اظهار فحولتهم، وليس الكرم آخرها. وقامت الفتاة، وذهبت الى المقهى ثم عادت، ولمّا جاءت القهوة شرب قليلاً منها وتركها على حالها، فقد خاف أن يظل الليل ساهراً، أو أن يصاب بامساك مزمن ينعكس على الصغير، ويؤثر بدوره على الكبير.

وجلس، في الثانية ظهراً، في صالة مكتبة (بون) العامة، وهي عادة كان يمارسها في شتاء عام ١٩٩٠ وفي صيف ايار ١٩٩١، وأخذ يمعن النظر في الراين وفي الجميلات أيضاً، ثم بدأ يدوّن ملاحظاته التي تشكلت لديه من قراءات الصباح:

" أستغرب، حقا كيف تنقل أعمال سحر خليفة كلها، تقريبا الى الألمانية، في الوقت الذي لم ينُقل لجبرا ابراهيم جبرا أي نص. ما هي المعايير الأساسية التي يعتمد عليها الألمان حين ينقلون نصوصنا الى أدبهم؟ لقد قيّم النقاد العرب جبرا على أنه صوتٌ روائي بارز، وهذا ما لم يتحقق، حتى الآن، لسحر خليفة، على الرغم من نشر أعمالها، فكيف قيّمها المترجمون الألمان؟ وهل قرأوا جبرا؟.

يستطيع المرء أن يفهم لماذا نقل كتاب معين بسيسو "دفاتر فلسطينية" الى الألمانية، ولماذا نشر في المانية الشرقية تحديداً في العام الذي صدر فيه في بيروت - أي في عام ١٩٧٩-. يهتم الشيوعيون بنقل تجارب رفاقهم، ويسرون حين يكون الخطاب مشابهاً لخطابهم.

تعكس الكلمة التي كتبها (هاينز أودرمان) للقصص الفلسطينية القصيرة الصادرة في ألمانية الشرقية صورة للخطاب الثقافي الألماني الشرقي".

ولاحظ أنه كان في تلك الأثناء هادئاً جداً، فسأل نفسه وشَعَرَ:

" سألته : لماذا تبدو هادئاً ووديعاً؟

فأجابني: لكي أغادر، لا عدوا، وانما صديقا".

وقرر أن يكتب عن لقائه الأول باستاذ الاستشراق لطرافة موقف الأخير الذي ذكره بشخصية سعيد في رواية أميل حبيبي "المتشائل". وكان قبل أن يقلع من مطار اللد قد اتصل بهذا، مرة ثانية، ليخبره، خلافاً لما أخبره به قبل أيام بواسطة الفاكس، أنه سوف يطير الجمعة، فقد وافق له الاسرائيليون على السفر. وكان أستاذ الاستشراق قد سافر، يوم سفره، الى باريس لينفق فيها أربعة عشر يوما، وعلم فيما بعد أنه كان في القدس أيضا، أو هذا ما قاله له صديقه الذي أقام في (كولن).

وبينما هو جالس على كرسيه في قاعة الاستشراق، اذا بصوت الاستاذ يرتفع، وكأنه يوحي له بأنه حضر. ولما سمع صوته نهض عن كرسيه وفتح باب القاعة، واتجه صوب الاستاذ ليسلم عليه، فما كان من الاستاذ الا أن سأله متغابياً:

" أما زلت هنا ايها السيد؟ ألم تسافر بعد؟"

وقد تغابى كما تغابى الاستاذ الذي كان يعرف أنه سيقيم هنا شهراً وأنه لم ينفق منه سوى نصفه فقال: " من غير المعقول أن اسافر قبل أن نلتقي".

ولا يدري لماذا كان، وهو في ساحة الجامعة، يرى كلباً ضخماً أسود اللون. لقد رآه مرة بصحبة امرأة تشبه أنيماري شيمل، وكان ذلك صباح الأحد الأول الذي أنفقه في بون. وقد رآه ثانية مع شابة ألمانية تغازل صاحبها الألماني، وكان الى جانب الكلب الكبير جروٌ أسود صغير، فضحك في سره وقال: يبدو أنهم

يظنون أنني وأستاذ الاستشراق منسجمان، وخاطب نفسه: أيُها الجروُ الأسود الصغير !!.

وانتابته صباح ١٣/٨/١٩٩٦ حالة شعرية، فكتب النصوص التالية:

الى ناجي العلي وآخرين:
تسأله ان كان يعرف مَن فجّرَ رأسه؟
الغاصبُ أم أهله؟
فيجيب: الغاصبُ دبّرها والفاعل من أهلك!
ويسألك: وأنت؟ من سوف يفجّر رأسك؟
فتجيب: الغاصب يفعلها والسببُ همو أهلك <”!

" الى روز وفائزة
الذي راقب الهاتف
والذي سجّل المكالمة
والذي رتّب الأمر كله:
هؤلاء كلهم هم السفلة !!!"

" تساؤل :
"الى محمود شقير"
من سلّم المخطوطة الأولى للرواية؟
الشيوعي المبعد أم أهلك؟"

" هذه الأوراق
هذه الأوراق! من يقرأها في أثناء غيابك؟
العرب العاربة أم العرب المستعربة أم العرب الصهاينة؟"

" سيركس
أمس رأيتها،
أمس تذكرت قصتها،
أمس أعدت القصة
وجاءت أمس صديقتها زيلكة
جاءت في جسد امرأة أخرى وابتسمت،

ورأيت أيضا، أندريا تأكل بوظتها وبيدها جريدتها
أمسِ رأيت الماضي،
أمسِ رأيت أعواما ستة مرّت كالبرق"

وكان في ظهر الثاني عشر من آب، وهو في مطعم الطلبة قد رأى طالبة كان عرفها في بامبرغ منذ سبع سنوات، وقصت عليه قصة أمها وابيها وافتراقهما ومعاناتها تبعا لذلك. وقد أخبرته قبل سنوات أنها حين تلتقي مع ابيها تسلم عليه سلام الغريب على الغريب، وأنها لا تشعر أزاءه بعاطفة الأبوة، وهي قلما تزوره. وقد تذكر طفلتيه وحديثه معهما على الهاتف، ذلك الحديث الذي أصغى اليه أو سجّل، وقد عرف هذا من خلال ردود أفعال الآخرين، وأدرك أن مخطوطة روايته" الوطن عندما يخون"، وكان قد ترك نسخة مصورة منها لدى قاص فلسطيني حتى لا تضيع ان صودرت النسخة الأصلية، أدرك أنها سلّمت لغير جهة، وأنّ الألمان قد قرأوها.

وقد جلس في مساء الثالث عشر من آب، وأخذ يدوّن ما رآه، في نهاره، فكتب:

" اليوم، وأنا في مكتبة جامعة بون العامة، زارتني أندريا كرايسر طالبة الأدب الألماني التي عرفتها في جامعة بامبرغ. لقد زارتني في جسد امرأة أخرى. جلست خلفي ولم تكلمني اطلاقاً. ظلت صامتة، وبعد ساعة، أو يزيد، غادرت تحمل معطفها الحشيشي اللون.

واليوم ايضا رأيت بربارة في جسد امرأة أخرى. لفّت حول الطاولة، وتجولت في ركن المكتبة الذي أجلس فيه، وكانت تحاورني اشارياً. التزمتُ الصمت، وأخذت أتذكر ما كتبته في رواية " الوطن عندما يخون" عن ذلك النوع من المسرح الذي لمّا يوجد: (تقريباً):

" يتحول العالمُ كله الى ممثل، وتبقى أنت تشاهد. هل ثمة مسرح في العالم يكون الممثلون فيه كُثراً والجمهور فرداً واحداً؟

لو كان بريخت حياً لربما أفاد من تجربتي. ها هي تجربتي تؤدي الى اكتشاف نوع جديد من المسرح".

" واليوم أيضا، في المكتبة الرئيسة، جلست الى جانب طالبة يشبه وجهها وجه روز، وكان أمامي طالب أسود. اليوم كنت أنظر في الوجوه وجهاً وجهاً، وأرى وجوهاً كثيرة عرفتها في اجساد لا أعرفها. هكذا مرّت كاترين طالبة الأدب الألماني، وهكذا مرت رائحة وهي ترتدي بنطال الجينز السماوي الذي أبرز لها مؤخرة كبيرة، وهكذا وهكذا. ولم ألتفت كثيراً الى ذلك الرجل الكبير الذي كان يبحث في الخرائط، وكان يمسك بالقلم الأسود ذي النهاية البيضاء الأقرب الى الأولمنيوم، وكأنه يقول لي: رأسك رأس ألماني. لم ألتفت اليه قدر التفاتي الى تلك الفتاة البضة التي كانت تربط شعرها وترتدي تنورة طويلة، وكانت تمسك بقلم أسود اللون عليه ثلاث اشارات سماوية اللون - هكذا رأيتها من بعيد، وان كانت تقترب من اللون النيلي.كان طول الفتاة ساحراً، وزادها صفاء بشرتها جمالاً. لقد تخيلتها هادئة وديعة متزنة".

وتذكر ما كتبه، ذات نهار، تحت عنوان "شيطاني الأنثى" فشعر متسائلاً:

" شيطاني أنثى
أم رأسي ألماني؟
شيطاني أنثى
أم هذا الرأس سماوي؟"

وافاق صباح الرابع عشر من آب، وتذكر مقطعا شعرياً كتبه توفيق زياد يهجو فيه بعض رفاق الحزب الشيوعي الذين تركوا الحزب وأخذوا ينادون بعالم بلا أقفاص، ووجد نفسه يدونه ، والمقطع هو :

" كلّ ما قلناه جزءٌ من حقيقة
واذا أحوَجَ الأمرُ
فسنأتي بالتفاصيل الدقيقة"

ونظر الى ما كان عليه في الضفة الغربية، والى ما هو عليه من حال، حيث رأى أنّ الحصارَ يشتدُ ويمتد، وقرّر أن يعيد النظر في روايته " الوطن عندما يخون"، وسجّل الملاحظة التالية:

" لابدّ من اضافة ما الى الرواية. ثمة أمرٌ مهم أرى أنه يجعل من الرواية روايةً ذات بعد رمزي أيضا، ويتمثل هذا في الاشارة الى حصار العراق وتدمير الأسلحة فيه تدميراً مبرمجاً".

ولما كان لم يستطع النوم جيداً، وكان السبب في ذلك يعود الى القهوة وما وضع فيها من مواد مُسهرة كتب قصيدة أو ما شابه:

" القهوة بريئة والناسُ ذئاب
القهوة محبوبتنا السمرا تسلبك النوم
القهوة سمّك حين يباركها الناس"

ولمّا نام الصغير، ذات نهار، وكان قبل أيام، وتحديدا في أثناء اقامته في الفندق، يظل ناهضاً، كأنما هو تقي يعبد الله والناس نيام، لمّا نام الصغير كتب يصوّر حالته:

" صغيرك الذي لا ينام، فجأة ينام
هذا التقي اللانقي يصحو والناس نيام
سبحان خالقه! يجمع ما بين التقوى والآثام".

" سوف يفهم الناقد التفكيكي هذا الكلام، حين يصغي اليه، بطريقة مختلفة. للكلام بقية"؟وبحث في مكتبة (بوفير) عن كتاب (البرتو مورافيا) " أنا وهو "، وكان قد قرأ عنه، ذات يوم، دراسة كتبها جورج طرابيشي، فلم يجده. واسترجع ما كتبه سارتر في احدى قصصه، وقال:

" الأفواه الجائعة لماذا تبقى جائعة
الله الرازق يرزقها
وهو الخالق، ولها في الكون طعام يكفيها،
سبحانك ربي! سوء التوزيع يلازمنا،

سوء التوزيع في هذا الكون منذ زمان وزمان".

ودوّن هذا حتى لا ينساه، وتذكر أنه في مثل هذا اليوم ناقش رسالة الماجستير.

" قرأت أمس رسالة دكتوراة حول محمود درويش، يورد صاحبها فيها مصادر ومراجع بالفرنسية دون أن يتقنها. لقد تذكرت ما فعله أستاذ في جامعة النجاح يترجم له صديق دون ان يذكر اسمه. هذه سرقة علمية وتزوير. وكلا الرجلين دعيٌّ".

" تذكرت أمس استاذاً زارني، ذات نهار، وأنا في بامبرغ، وأخبرني أن السيدة الألمانية تترجم لي دراستي عن محمود درويش، وضحكت فلما سألني عن السبب أخبرته قائلاً: انها تترجم الدراسة لشاب عربي يدّعي أنه يكتب بالألمانية، وينكر أن هناك من يترجم له، وكانت استاذته تترجم له، من قبل، قصائد الشاعر".

" هكذا تكتب المسوّدات".

" أمس رأيت في الممر تلك التي تشبه طالبة الأدب الانجليزي. كانت ترتدي شلحة سوداء اللون وشورتا أحمر اللون".

" ذات العجيزة الكبيرة أوحت لي يوم حفل التخرج أن أتقدم لخطبتها".

"الناس في بلادنا يقلبون الحقائق".

" لا اعتقد أنني اشبه استاذ الأدب الانجليزي الذي كان يجري وراء موظفة المكتبة التي كانت تجري ورائي...".

" رأيت غلاف كتاب صالح عن اميل حبيبي. اعتقد انه مخطىء فيما ذهب اليه، فليست لغته العربية بيضاء. ثمة ركاكة واضحة في الأسلوب، وثمة أخطاء نحوية عديدة لا تليق بدارس أدب عربي".

" كانوا يظنون أنني لا أريد أن اسافر الى ألمانيا خوفا من ألا أجيد الألمانية محادثة. قلت لأخي سأسافر تحدياً. أنا أقدر أهل بون الذين يقولون الحقيقة. وأرى فيهم ما أوحته لي المرأة التي

مدّدت لي الاقامة، وذلك من خلال لون القلم الذي كان بيدها. بون مدينة بيضاء، وأهلها في معظمهم، كذلك، ولهم أكتب:

لأهل المدينة الذين قالوا الحقيقة احترامي كله
لأهل بون هذا النشيد وليرتفع عالياً:
بوركت المدينة،
بوركت بون".

" انني ارى فيما تفعله أمريكا والأمم المتحدة بالعراق جريمة ينبغي أن يحاسب الأمريكان عليها. اذا أرادوا حقاً أن يدمروا السلاح، وهو ما يفعلونه، فليعيدوا الى الشعب العراقي ثمنه. ألم يبيعوا، من قبل، السلاح، وهم راضون".

" أتصرف دائما بحذر، وذلك لأنني، من خلال تلميحات الآخرين، ألحظ أن ابعادي أو تسفيري هو قاب قوسين أو أدنى".

" الدول لا تنسى
الأفراد ينسون"
" نأتي لننجز الدراسة
ولنترك السياسة
ونغادر بالتي هي أحسن!!"
" اسألُهُ: كُنتَ أليفا وودودا
فلماذا أصبحتَ مثل يهوذا؟
فيسألني: هل سمع العالمُ رأي يهوذا؟

ويتابع:

لستُ بشاعر مثلك يا يوذا !!"

وقد زعموا أن النص الذي كتبه، وهو نص " ليل الضفة الطويل" قد ضايق الشاعر عبد اللطيف عقل كثيراً، وتساءل هو عن السبب الذي حال دونه والموت، فهم يضايقونه منذ ست سنوات تقريباً مضايقة تعجز الجبال عن تحملها. وتذكر المتوكل طه الذي يعارض الحل السلمي في شعره ولكنه، في سلوكه، يسير في ركابه. ولاحظ أن البوظة تعني قصيدة (بوذا) التي كتبها

المتوكل. وكانوا اذا ما ارادوا أن يقولوا له انك تعارض الرئيس لفظاً وكتابة، ولكنك تسير في ركابه، ذكروا أمامه البوظة أو بوذا.

" لا أمدح نفسي كثيراً حين أزعم أنني أكتب العربية كتابة محكمة جداً". وكتب يصور ما ألمّ به، بسبب تغير الأحوال وتبدّلها:

" أصبحت تخاف الأبعاد
وتخاف الأجسادَ
وتخاف من الضحك كثيراً
أصبحتَ حقوداً ووحيداً
وعدوا للناس، قريباً وبعيداً
يا أنتَ ! هل ترغب في أن تبقى في الدنيا شريدا".

ولمّا أوحوا له بأن نقوده التي تركها في البنك نقود اخذها بطريق غير مشروعة، وكثيراً ما كانوا يذكرون أمامه اسم قريب له سلّم مجموعة وقبض الثمن كتب:

" جزء من نقودي أحضرته معي يوم أتيتُ الى ألمانيا، وجزءٌ آخر وفرته من راتب المنحة، أو من تدريس اللغة العربية، أو من الكتب التي بعتها، وما زاد عن ذلك فوائد تلك النقود".

وقد أنفق أكثر أيامه في ذلك الشهر وحيداً، وكان، وهو في الضفة ينفق معظم وقته في شقته يقرأ ويكتب، ولمّا سُئل ان كان لا يشعر بالملل شَعَرَ بما يلي:

" لا تشعر بالضجر ولا بالوحدة تشعر
هل مات فيك الاحساس
أم اصبح قلبُك قفراً
والجسد يباس؟"

وأنهى ما كتبه في اليوم الرابع عشر من آب، وكان كتب كثيراً، بما يلي:

" لا تَصعَدُ الى جَبَلٍ لتخاطبَ ربّك
تجلس في الغرفة وحيداً وتناجيه:
أنت العارفُ بالأسرار!

فيفتت أسرةً . . . ويمزقها،
يقاطع فيها الأخُ أختَه.
تجلس في غرفتك وحيداً:
لكن ما ذنبُ الصبية؟"

وترك قلم بايلوت 5 ياباني الصنع، وكان قد اشتراه من مطعم الجامعة، في المطبخ. واشترى من المكان نفسه قلمين لون أحدهما أخضر وثانيهما أحمر، وكانا صناعةً ألمانية، ولاحظ الفارق في السعر بين المستورد والمنتج محلياً، وأدرك أن الألمان يشجعون ما ينتجونه، حين يرفعون سعر المستورد. ونهض وكتب القصة التالية التي أخفاها عن الآخرين:

من جديد رأيت اشتيفاني في امرأة أخرى. وكدت أخاطبها باسم استيفاني، ولكنني ترددت خوفاً من أنْ أعطي الآخرين دليلاً على أنني أنا الذي أبادر بمغازلة الفتيات، لكي يسفروني، من ثمّ، بحجة أنني كذّوب يقول عن الآخرين ما هم منه براء. وأخذت ألقي نظرة على الكتاب الذي كانت الفتاة تصور منه بضع صفحات وقرأت كلمة تاريخ على غلافه دون أن أتمكن من قراءة بقية العنوان، وان خمنت أنه تاريخ الفن، فاستيفاني التي عرفتها، ذات نهار، كانت تدرس قصة الفن وتاريخه، وهو ما قالته لي، وهو أيضا ما رأيته شخصياً، وأنا في غرفتها، على الطربيزة، يوم زرتها لنأكل التفاحة معاً.

وكنت أتابع الفتاة الجامعية وهي تصور وتحرك جسدها البضّ بطريقة لافتة للنظر. لقد كانت تنتقل ما بين آلة التصوير والطاولة القريبة منها، وكانت أحياناً تنحني قليلاً فيبرز، لمن يقف في الطابق الأول، نهداها البضان الأبيضان، وخيل اليّ أنها لم ترتدِ ماسكة النهود. ولا أدري لماذا استبدت بي رغبة في محادثة تلك الفتاة التي جعلتني لا ألتفت كثيراً الى تأخر السكرتيرة والطلبة في المجيء الى المعهد وافتتاحه في الوقت المناسب، وقلت لعلهم فعلوا ذلك عن قصد حتى أحضر أنا واستيفاني الجديدة. وما هي الا دقائق حتى حضر الاستاذ اشتيفان راكباً دراجته التي لو ركبها

استاذ جامعي في بلادنا لأصبح موضع سخرية وهزء، وسألني ان كان ثمة أحد في قاعة الدرس فأجبت نافياً. وصعد الاستاذ الدرج الدائري الشكل وفتح باب القاعة وأشعل النور وأخذ ما يريد أخذه من بريد وتركني وحيداً بين الكتب، فيما ارتفع صوته وهو يغادر: أيها السيد لست مسؤولاً عن فتح الباب لأي قادم حتى يأتي المسؤولون.

جلست، للتو، على مقعد الدرس (أخربش) بعض الملاحظات، ثم توقفت قليلاً فقد شرد ذهني الى ثماني سنوات خلت، الى اشتيفاني تلك الفتاة البضة التي عرفتها في مدينة ألمانية أخرى، الفتاة البيضاء اللعوب الساحرة جمالاً.

فجأة، في المطبخ، رأيت (اشتيفاني). كنت ذاهباً لاحضار بعض أدوات الطبخ فأبصرتها الى جانب (بترا) تلك الفتاة التي كانت تعاني من عطب في ساقها، وحين سألت عن الأدوات طلبت مني (اشتيفاني) أن أعيدها، الى مكانها، من جديد، لأن الطلبة يستخدمونها أيضاً، وهنا سألتها ان كانت تقيم في منزل الطلبة، فأخبرتني أنها تقيم في الغرفة رقم ٢. وابتسمت لي فابتسمت لها، ووعدتها أن أعيد الأدوات دون تأخر.

وأخذنا نلتقي بين الفينة والفينة في المطبخ، ونتحدث عن الدراسة والصداقة والطبخ العربي والألماني وأشياء كثيرة أخرى، وفيما بعد عرفتني (استيفاني) على صديقها الذي ستتزوجه، كما أخذت تداعب الصغار وتلاعبهم وتتحدث معهم بفرح كبير. ولم تمانع، فيما بعد، في استضافتي في غرفتها والحديث معي عن دراستها، كما لم تَرَ ضيراً في أن أقرأ في كتابها الذي وضعته على الطربيزة، وحين رأيت بعض الصور ابتسمت وسألتها: أتدرسون في هذا الكتاب؟ فأجابت: نعم. هذا كتاب عن تاريخ الفن، وهو كتاب مقّرر. وهو مالم يخطر لي، أنا ابن الثقافة الشرقية، على بال، وبخاصة أنّ كثيراً منّا لا يستسيغ أن تدرس، في الجامعة، رواية الطيب صالح "موسم الهجرة الى الشمال" لما فيها من عبارات قليلة تبدو شاذة.

ولا أدري ان كان فضول ما وراء (استيفاني) وهي تغازلني. وأخذت أتساءل ان كانت صادقة في مشاعرها. ودفعني هذا، بدوره، الى مغازلتها ومواصلة ذلك لأتأكد مما تبتغيه وتهدف اليه، وبخاصة أنّ صديقها كان يزورها بين فترة وأخرى، ويقيم عندها مدة نهاية الأسبوع، مثله مثل صديق (الكسندرا) التي ظلت أكثر اتزانا على الرغم من الفارق الكبير في السن بينها وبين صديقها.

وذات نهار، وأنا في غرفتها، قدمت لي (اشتيفاني) تفاحة لآكلها، فقضمت منها جزءاً وطلبت منها أن تقضم جزءاً مقابلا، فرفضت قائلة: أريد تفاحة كاملة، لا تفاحة يشاركني في أكلها أحد.

وافترقنا في تلك اللحظة، وان ظلت العلاقة بيننا قائمة، فقد كنّا نُمَرحِبُ بعضنا اذا التقينا، وكنا ايضا نتبادل الابتسامات. وأخذت أرى (اشتيفاني) بصحبة شاب غير خطيبها، فتساءلت ان كانت أنهت العلاقة مع خطيبها، وبدت تسير، أحياناً، وحيدة مسرورةً تضع على أذنيها سماعتي مذياع تحمله بيدها وتصغي الى الموسيقى، وغالباً ما كان ذلك يتم ظهر الأحد - أي بعد مغادرة صديقها الجديد غرفتها.

وذات مساء دعتني (بترا) و (بيرجيت) الى حضور الاحتفال الذي سيقيمه طلبة الطابق الأرضي الذي نقيم فيه بمناسبة سفر (اشتيفاني) لاقتراب موعد زفافها. ولم أمانع في دفع مبلغ من المال مشاركة مني في انجاز الاحتفال وفي توديع (استيفاني)، ولكنني تساءلت في سرّي عن العريس ان كان خطيبها الأول أم الشاب الذي تعرفت عليه في الجامعة. وأخذت أفكر في حادثة التفاحة ملياً. وذهبت (اشتيفاني) الى عريسها، وذات مساء، بعد نصف عام، رأيتها في الشارع وحيدة فسألتها ان كانت عادت الى المدينة لتدرس من جديد، ولما التقينا، بعد ساعة في المطبخ أخذت (اشتيفاني) تهاتف، من جديد أيضا، شخصاً ما، في المدينة، لتتفق معه الليل كله، ولم أسألها ان كان أيضا لا يمانع في أن يأكل التفاحة التي يشاركها غيره في أكلها.

وأخذت أتساءل ان كانت تلك التي تشبه (استيفاني) تمثل دور (اشتيفاني)، وان كانت (اشتيفاني)، الآن وحيدة تنفق أيامها في انتظار ذلك الذي عرض عليها، ذات نهار، أن يأكلا التفاحة معاً، فرفضت ذلك، لأنها لا تريد أن يشاركها أحد في أكل التفاحة، وذهبت بعيداً فتخيلت أن زوجها الآن يأكل تفاحةً أخرى ورفضت (اشتيفاني)، لذلك، أن تستمر في حياتها معه، وفكرت في أشياء كثيرة أخرى، فيما عدت، الى القراءة، من جديد تاركاً (استيفاني) والمدينة والماضي والدرج الدائري؛؛

وكتب في الخامس عشر من آب كلاماً أقرب الى الشعر، وهذا الكلام هو :

" أحياناً تهمس في أذن الخالق
هل خلق لي الشارع
أم جسدي خلق للشارع؟"
" أحياناً لا تنظر في وجه الناس
الناسُ هم الوسواس الخنّاس"

وبينما هو جالسٌ في الكافتيريا، اذا به يرى تلك الفتاة التي تشب زيلكة التي استضافها ذات نهار، وعزفت له في غرفتها الموسيقى، وداعبت أمامه أرنبها. وأخرج دفتره وقلمه واستوحى من الفتاة الجالسة أمامه هذا المقطع:

" زيلكة جَلَست هذا اليوم
زيلكة ابتسمت
زيلكة أكلت كعكتها
زيلكة شربت قهوتها
وا أسفاه.
نسيت زيلكة تقبيل من ظنّوه صديقتها"

وتذكر معاناته في نابلس، وما كانوا يسببون له من مشاكل، فكتب:

تتساءل عن شكل الخوف وعن سببه
تتساءل عن شكل الطلقة وعن مُطلقها

عن أيامٍ مَرّت لم تعرف فيها طعم النوم
عن أصحابك، هم أعداؤك،
عن ليلٍ طال بلا سبب !
تتساءل عن طلقات النار مساءً قُربَ البيت،
عن اصوات لا تعرف مصدرها !
تتساءل عن شكل الناس حين يجيئون، وفيما رغبوا،
عن نظراتٍ مُسلَطةٍ دون حساب
وترى قلبك يتضخم أحياناً
يتقلصّ أخرى،
تتساءل عن نوع الطلقة، عن سبب القتل
وتنظر في وجه الطفلة تودعها،
تتساءل صباح مساء ان كان الوطن سيبقى
أو كنت أنت ستبقى،
تتساءل عن قوتك، عن مصدر رزقك،
وتهمس: هي ذي الضفة !!"

وبَدَت له المدن الألمانية، في الصيف آسرةً أخاذة. هكذا رأى بون، في تلك الأثناء، ولاحظ انعكاس الصيف على أفرادها. لاحظ الناس، وهم يجلسون على مقاهي الرصيف، ولاحظهم على ضفة النهر، ولاحظهم في ساحة الجامعة يستلقون على الحشيش، ولم يستغرب ذلك الأحد الذي كان فيه جالساً على مقعد في ساحة الجامعة، لم يستغرب وهو يرى الفتاة الألمانية الشقراء تقبل ذلك الزنجي الذي كان مستلقيا على الأرض. رآها وقد عادت على دراجتها وبيدها البوظة، وتساءل في سره ان كان ذلك مقصوداً ليقولوا له ان الألمان ليسوا عنصريين، ولكنه سرعان ما أقلع عن تساؤله، وتذكر الأيام التي انفقها في فرابيورغ، وتحديداً تلك التي أنفقها في مبنى (توماس مورس باوزة)، فقد رأى الطالبة الألمانية كلاوديا تنتظر مساء السبت لتذهب وصديقها الزنجي الى الديسكو.

وكان رقص الزنوج يفرحها. وحين كان يرى الفتيات يرتدين الملابس الصيفية، يأخذ بتكرار بَيتٍ من شعر عمر الخيام هو:

يا ربّ هل يرضيك هذا الظمأ

والماء يَنسابُ امامي زلالا؟

وأخذ في الأيام الأخيرة، الأيام التي أمطرت فيها مطراً غزيراً، يسير في الشارع بفرح بيّن. " منذ اربعة ايام وهي تمطر. ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ آب. لقد بدأ المطر يعدّني للعودة، وأخذت أبحث عن ملابس شتوية لَستُ بحاجة اليها الاّ لهذه الأيام القليلة. هذا المساء ٨/١٥ مطر غزير".

وجلس ذلك المساء في غرفته، وأخذ يسترجع أحداث اليوم وما شاهده، ودوّن الملاحظات التالية:

" لقد حاوروني في الضفة خَمسَ سنوات حواراً اشارياً، ولم يخرجوا بنتيجة. ولا يصدق أي منهم أنني أضع النقاط على الحروف".

" كان المعلم الكبير يظن أنك غبي، فاذا أنتَ تتغابى.

كنت أظنك حماراً فاذا أنت أحمر.

"المتشائل"

" أنا ابو قلمون في كل لونٍ أكون

اختر من الكسب دونا فانّ دهركَ دون

زجّ الزمان بحمق انّ الزمان زبون

لا تكذبنّ بعقل ما العقل الاّ الجنون

المقامة المكفوفية. "بديع الزمان الهمذاني"

"اليوم في مكتبة بون العامة جلست تلك التي تشبه (اينس)، وهي طالبة عرفتها في بامبرغ الى يساري، وجلست تلك التي تشبه (مارغوت)، ومارغوت طالبة كانت تدرس الاستشراق في بامبرغ، أمامي، وجلست تلك الفتاة الجميلة الهادئة الوديعة وراء تلك الفتاة التي تشبه روز.

ما ورو لم يغب عنّي. ما ورو يلاحقني في جسدٍ آخر".

" ثمة احساس لدي، لدرجة اليقين، يقولُ لي انّ نقوداً في صندوق الجامعة باسمي، ولا أدري مصدرها. لعلهم يريدون أن يعرفوا، وهم الذين منحوني منحة لمدة شهر، ان كنتُ آخذ غيرَ ما استحق".

" أعتقد أن عقلي ابيض. لقد لمحوا لي بهذا، في قاعة الاستشراق، مراراً. وأمس لمحوا لي ايضا. كنت جالساً أقرأ، وتركت احداهن باب قاعة المطالعة مفتوحاً، وأخذت تنظر الي، وتوحي لي بالقلم الذي كان بيدها. لقد كَتَبتُ هذا، ذات نهار، الى روز وفائزة".

" أحياناً أفضل أن أتحول الى غبي، الى حشرة مثل بطل قصة التحول لكافكا. مثل جريجوري".

" كنت أدرك أنني لا استطيع القراءة في الأسبوع الأول من وصولي، واعتقدت أنني لن أنجح ايضا في القراءة في الأسبوع الأخير، غير أنني بدأت اقرأ منذ اليوم الأول، فهل سأواصل القراءة، بانتظام، حتى اليوم الأخير من الأسبوع الأخير. لستُ ادري !"

" تكرار:

مفتاح الغرفة الضائع

ليس بضائع

ولكن اذا كان مفتاح الغرفة مع الألمان فقط، ومع جهة رسمية، فلا بأس. انا أعرف أنهم رغبوا في أن آتي لمدة شهر، وأن أغادر اثر انتهائه. انني الآن في عهدة الدولة الألمانية، ولن يفعلوا معي شيئاً، ما دُمتُ أتصرف بعقلانية. وأعتقد أنني اذا بدأت بمغازلة فتاة فسوف أسقّرُ. لن أبدأ بمغازلة فتاة، ما لم تبدأ هي بذلك".

" لا رغبة، هذا المساء، في القراءة. ثمة رغبةٌ في الكتابة، في كتابة أي شيء بخط جميل.

العلاقة بين نوع القلم والورقة علاقة جنسية. كلما كانت الورقة ناعمة الملمس والحالة النفسية للكاتب جيدة، كان الخط جميلاً.

هل هذا الخطّ خط مخطوط أيضا؟

محمود درويش في رثاء عز الدين القلق:

قد اعترفوا أنهم قتلوني،

ولكنهم عانقوني طويلاً،

ودسّوا مكان الرصاصة عشرين ألف فرنك

لأجل الخطاب الذي سوف أقنع فيه اليسار الفرنسي

بأنّ السجون على ضفة النهر مستشفيات".

في قاعة الاستشراق كان صوت الأستاذ يرتفع، وكأنه كان يقصد أن يسمعه رأيه فيه. وتساءل ان كان الأستاذ يؤمن بالجن أيضا. ولاحظ أنّ الأستاذ يعجب منه لاكتشافه الأمور والحذر مما يحيط به. لقد أراد أن يقول له انك أكثر من جن، فنادى على طالب مصري مصبحا عليه بالألمانية". "مورجن" وفهمها هو "أكبر من جن". وكان يعرف أنهم يقرأون ما يكتب.

" ١٩٩٦/٨/١٦

تفتح الغرفة يومياً ويُقرأ ما :اكتب.

لا ضرورة لإثارة أي اشكال. يفضل الصبر والمغادرة.

رقبتي اليوم أوجعتني بشكل لافت للنظر.

أعتقد أن لا ضرورة للكتابة ان استطعت.

ر، و أ، و ش، و ر غبيات جداً وامعات".

ولفتت المرأة الشقراء التي أخذت، منذ ايام، تقيم في المبنى، مع ابنتها التي تدرس في (كولن)، انتباهه. ظنها، ابتداء، مخابرات ألمانية، وحين كلمها بالألمانية، ردّت عليه بعبارة واحدة خاطئة، فادرك أنها ليست كذلك، وعلم فيما بعد أنهّا أم تلك الفتاة، وأنها قادمة من روسيا. وأدرك وهو يحدث ابنتها، هذه التي كانت ترتدي شورتها وبلوزتها وتبدو جدّ أنيقة، انّ نص "الوطن عندما

يخون" مقروء من جهات ألمانية بعناية، أو من جهات فلسطينية كانت على اتصال بها.

وكرر ما كان كتبه من قبل:

" قال لي : أمكث مدتي محترماً
قال لي: واغادرُ محترماً
وسألني: هل يستطيع؟
فأجبته: أستطيع ! "

في قاعة الاستشراق لفتت الصبية التي تضع نظارة، وكانت شقراء تربط شعرها من الخلف، مثل فتيات الريف الفلسطيني، انتباهه. لقد جاءت الى قاعة الاستشراق منذ تردد عليها، وأخذت تتردد باستمرار، فيما بدأ يتابع حركاتها دون أن يكلمها. كانت تحاوره اشارياً، مثلها مثل ماريانو، وأحياناً كانت تضع على الطاولة كتباً ذات دلالة معينة، وسرعان ما يفهم قصدها من وراء ذلك. جاءت مرة وقد ارتدت التنورة، وأخذت تجلس أرضاً، وكانت تقرأ بعض الوقت. وجاءت ثانية وقد ارتدت الشورت، وثالثة وقد ارتدت البنطال النارنجي. وفيما هو، ذات ظهر، خارج من قاعة الاستشراق، وكانت قد خرجت قبله بدقائق، لحظها في غرفة تلفون عمومي تهاتف انسانا ما. وخربش:

" أفنان. انجليكا. منذر. استيفان. منذر لا يعرف العربية جيداً. ثمة من يكتب له كلماته التي يلقيها، ولا يكتفي هذا الذي يكتبها بكتابتها، انه يشكلها له أيضا. استيفان يتكلم العربية ويقرأها ولكنه حين كتب لي عبارة كتبها ركيكة جداً. أفنان ثرثارة تكتب العربية بأسلوب ركيك جداً، عدا أنها ثرثارة وغبية. أنجليكا لا تجيد العربية كتابة. البطاقة التي أرسلتها لي، ذات نهار، لم تخلُ من أخطاء، وهي التي طلبت مني أن أصحح لها نصاً بالعربية".

" لا أكتب باللون الأحمر لأنني أحمر. اللون الأحمر يسحرني".

" سأترك نقود الألمان في بلاد الألمان. (٣٥٠) ماركاً أجرة الغرفة. (١٥٠) ماركاً مقابل ليلة في فندق كونتننتال، (٣٣٠)

ماركاً مقابل مبيت خمس ليال في الـ (هوفجارتن)، (٦٩) ثمن حقيبة. وما تبقى من (٣٢٠٠) ماركاً مصاريف أخرى".

" المقالات التي تنشرها افنان لا تختلف في مضمونها وأسلوب كتابتها عما تثرثر به نسوة المدينة. لدي نصا الكلمتين اللتين ألقاهما الرئيس ونائبه في المؤتمر. لقد كتبهما لهما غيرهما".

وأخذ وهو في المرحاض، وقد اصابه في هذه الأثناء امساكٌ مزمن، يبحلق في السقف جيداً. نظر الى مكان الاضاءة، وخيّل اليه أن ثمة كاميراً خفية تركز على تصويره، ولكنه لم يكترث لهذا كثيراً، فثمة غير كاميرا راقبته منذ وصوله. ثمة عيون بشرية أحصت عليه حركاته، ولاحظت نوع الطعام الذي يأكله، والأماكن التي يتردد عليها.

جلس صباح الأحد ٨/١٨ وكتب:

" حالاتك في بون"

أنت مراقب منذ أتيتَ فانتبه،
لقد تحللت المدينةُ في المدينة:
البائع يحاورك اشاريا
والاستاذ يحاورك اشاريا
والطلبة ايضا في المبنى:
صينيون وألمان وعرب عاربة،
هنودٌ وزنوجٌ وأتراك،
والطلبة في المعهد مثل الطلبة في المبنى:
تلك تأتيك لتنظف معها المطبخ
وهو يأتيك بروب الحمام مبتسماً،
والجو، مساء، لا يخلو من صوت رصاص
والكاميرا في المرحاض،
فاحذر هذا يا هذا "

وحزن لأنه لم يستطع أن يمارس حياته بقدر من الحرية، فكتب:

" كنت صباحاً ترغب في شرب القهوة في المطبخ،
أو تصغي الى صوت المذياع ويدك تداعب نهد الحلوة،
كُنتَ صباحاً تَرغَبُ في هذا،
لكنك كنت تخاف من القهوة تخصيك
وتجعلك تبحلق في الليل طويلاً،
وكنت تخاف من الحلوة ومن أبعادٍ يبدو وشيكاً".
" يا أنت ! هنا مثل هناك.
واللعبة تتكرر :
سيزيف أنت والآلهة قاسية
والصخرة جد كبيرة، فيما الوادي سحيق،
أحمل صخرتك، هذا حكم الآلهة،
وحكم الناس،
يا أنتَ ! هنا مثل هناك".

وكان قد اشترى جريدة (Das Bild) الصادرة في كولن، ولاحظ أن صفحتها الأولى تكتب عن شخص قتل قبل خمس سنوات، وأعادوا الآن، فتح ملفه، فما درى ان كان يشبه ذلك، الشخص، وترك الجريدة في المطبخ، ولمّا جاءت الفتاة الروسية، جلست وأخذت تقرأ فيها، ولم يرتح لوقفتها فكتب:

" سيدة أمس بدوت،
سيدةً، والوقفة - لولا اخفاضُ الرأس - أيضا سيدةٌ
لكنّ الرمزَ، يا سيدة المطبخ والمبنى، حيّرني،
فهل كُنتُ الرمزَ والعنوانُ هو الرامز؟"

وتابع الكتابة:

" خمس سنوات يا سيدتي مرّت

والقلب جديد، وجريدة أستاذي
تخبرني:
الميت أنت، ولكنّ القلب جديد".

وغادر المبنى، وأخذ يتجول في شوارع بون. كانت الشوارع خلواً من الناس الاّ ماندر، ودخَلَ مبنى الكنيسة وأصغى الى ما يقال، ولاحظ الناس وسلوكهم، ولم يمكث أكثر من خمس عشرة دقيقة ليذهب الى ضفة النهر، فثمة حركة لافتة للنظر.

" اليوم الأحد ٨/١٨

ذهبتُ، نهاراً، الى وسط المدينة. لم أفضل الجلوس على مقعد، على حافة نهر الراين. قلت أجلس تحت الأشجار الباسقة حيث يجلس الناس، وأحتسي كوباً من البيرة، وفعلت. كان يجلس أمامه شابان سمينان، وكانا يشربان البيرة ويبتسمان. لم ألتفت الى حركاتهما كثيراً قدر التفاتي الى نهر الراين والجميلات. فجأة جاءت فتاة صغيرةٌ سناً تربط شعرها وتضع قبعةً عليها شال ليلكي، وجاء في الوقت نفسه شاب شعره طويل جداً. أخذت أتأمل في الوجوه، ولا أدري لماذا أبصرت في الشخوص جارنا وابنه وابنته. شربت البيرة، ولم أكترث لأن تلك التي قدمتها كانت تشبه بربارة التي زرتها ورأيت المينورا في غرفتها. قلت : اطرد خوفي، ولتقل لي النادلة هذه انّ رقبتي سوداء، فما عُدتُ أكترث للأمر كثيراً".

ولا أرى ضرورة لنقل ما كتبه في التاسع عشر والعشرين من آب، فقد كتب صفحات كثيرة عن الدراسة التي جاء من أجل انجازها، ويمكن قراءتها منشورة. وقد أخذ في الحادي والعشرين من الشهر نفسه يكتب، من جديد، خواطره وافكاره، وأخذ يخربش، ومما خربشه:

" تقرأ عشر ساعات لتكتب ساعة.
فهل يقرأ غيرك ساعة
ليكتب عشر ساعات؟"
" تجلس في غرفتك وحيداً

تتأمل هذا الكون،
فتجيبك ضحكتها وهي تلاطفه:
هذا هو الكون"؟
" رائحة الرز تأتي من خلف الباب:
أرزٌ وبهارات شرقية،
وهنودٌ، كوريون وصينيون ...
و ...
تفتقد الأحباب".

" الفتاة الصينية أو الكورية ما زالت تمارس عادتها، تسير في الممر بطريقة لافتة للنظر، تصدر عن مشيتها أصوات تبدو كأنها مارش عسكري. وحين أفتح الباب لكي أوحي لها أنّ هناك من يقيم في الغرفة، أنظر الى سيقانها، وأهمس: ألا يفكر هؤلاء بأن هناك طلبة يريدون الدراسة. ثمة صديق لك، أراه دائماً معك، فلماذا هذه الحركات؟

وأحيانا افتح الباب أكشر في وجه من أراه يثرثر في الممر. أمس أصغيت الى لغة الحوار بين الطالبة وأمها، واستغربت اللهجة. الفتاة هذه تحاورك، وخيّل اليّ انها تحاورني نيابة عن فتاة أخرى تدرس اللغة الانجليزية في بلدي. فتاة تعيش مع أمها فقط. لقد كانت أيضا تزعجني كثيراً. تلح في الأسئلة وتكثر من الاتيان الى المكان الذي أعمل فيه".

ولم يدوّن شيئاً عن الطلبة العرب الذين كانوا يقيمون في المبنى. لقد رآهم وتعرف اليهم، وزارهم، ذات نهار، وشرب معهم القهوة. كانوا طلاباً وعمالاً، وأدرك من خلال الحوار معهم أنهم يعرفون بقصته، وأنهم على دراية تامة بأحواله، وحين دعوه مرة ذهب لمدة دقائق وسرعان ما غادرهم. لقد كان مساء يصغي الى اصواتهم ويقول: كأنني في الضفة، ولاحظ أنهم يتابعون حركاته متابعة واضحة، فخاطب اطار الحركة: " نحن براء منذ ولادتنا". ودوّن في صباح الثاني والعشرين من آب ملاحظات

عن حركة الترجمة الى الألمانية، وتحديداً ترجمة نصوص الأدب العربي والاسرائيلي، كما كتب ما رآه في المنام وهو:

الليلة رأيتني في الضفة مرتين
مرة في الطريق الى المطار
ومرةً في الجامعة.
الليلة طال الليل بلا طائل
وتذكرت الليلة اياماً مرّت
تذكر الصحو ليلاً في الثانية صباحاً".

وفي عصر اليوم نفسه كتب:

" كم تداخلت الشخوص ببعضها بطريقة عجيبة! هذه التي أمها روسية وتدرس في (كولن) علم النفس، كم واحدة أرى فيها. لقد مثلت طالبة الأدب الانجليزي دور يوهان في "تداعيات ضمير المخاطب"، وكانت ترمز الى الريف، وها هي هذه الروسية تمثل دور طالبة الأدب الانجليزي. يا الهي! كم تداخلت الأدوار وتعقدت".

" في كافتيريا الطلبة جَلَستُ أمسِ على طاولة كانت تجلس عليها طالبةٌ ناعمةٌ جداً، وخلف كرسي الطالبة كان هناك عمود ثخين عليه اعلانات تجارية كثيرة. أبانت الفتاة جانب شلحتها الأيسر، وكان اللون أسود، لتقول لي ان رقبة مطلقتك سوداء. كانت الطالبة تدخن، وترفع يدها اليمنى، وتقرب السيجارة من دماغها لتشير الى العقل الوقاد. في تلك اللحظة أخرجت دفتري وقلمي أخضر اللون، وحاولت أن أكتب، وبدأت أخربش فقامت الطالبة. وكانت ترتدي بنطالاً بني اللون، بنطالاً ضيقاً جداً يبرز مؤخرة كبيرة بطريقة بارزة . لقد ذكرتني الفتاة بصاحبة بنطال (التايت) الأبيض ...".

" قبل أيام، وتحديداً في ٨/٢٠ التقيت بأستاذ أدب عربي من جامعة اليرموك، وقد عرفني اليه الدكتور فيلد، وكان بصحبته قريبهُ، والأخير مستشار ثقافي للأردن في ألمانيا. وذهبنا بصحبة دكتور مصري كان يعلم في بون اللغة العربية، الى المطعم، بناءً

على دعوة الدكتور فيلد. أخذ الأستاذ الأردني يتكلم بالعربية الفصيحة، وسرعان ما أخطأ خطأً فاحشاً اذ نصب المجرور فقال " عن عمداً"، ثم تراجع عن خطئه، وسكّن وأخذ يتكلم بالدارجة، فيما تكلمت بالفصيحة قاصداً ذلك".

" يسرق النوم نِصفَ عمرنا وأكثر. هنا لا ترغب في الذهاب الى النوم مبكراً، خلافاً لهناك حيث ينام المرء في العاشرة. هنا تحزن كثيراً حين تذهب للنوم في منتصف الثانية عشرة، فالناس، خلافاً لهناك، يسهرون حتى ساعة متأخرة. هل هو الموت ازاء الحياة؟".

" لقد سألت أمس، وأنا في مكتبة (بوفير)، عن كتاب ديفيد غروسمان" اسرائيل المنقسمة" فقالوا لي انه نَفَدَ، وأن الطبعة التي تتوفر منها نسخ هي الطبعة المجلدة مرتفعة الثمن، لا طبعة كتاب الجيب. وسألت عنه في مكتبة أخرى فوعدوا باحضاره. فهل سيحضرونه؟".

" قبل أن أطير عائداً، وقبل أن أغادر بون سوف أذهب، من جديد، الى مقهى (لوبك). سوف أشرب القهوة، وأجلس ساعةً ساعتين أراقب العمال والعاملات والمسؤول الذي أخذت أرى فيه الأستاذ جورج هيرمان. لقد بدأ العمال في هذا المقهى رائعين. الرجل الأشقر الجاد جداً، وقد خيّل الى أنه لا يعرف الضحك، والفتاة الجميلة التي تبيع الخبز والجبنة وتنظف أحيانا الطاولات، وتلك المرأة التي تقدم القهوة للزبائن من وراء طاولتها، والمسؤول. الأول رحبّ بي غير مرة، والثانية كانت تشعرني أنني أتردد على مكان يرحب بي ترحيباً حاراً، وأنني لست بالغريب، والمرأة كانت تقدم القهوة بهدوء، وكان المسؤول يدخن، وكنت اراقب حركاته، فيما أشرب قهوتي بهدوء. أحياناً كنت ألتفت الى الروّاد وأنظر اليهم قليلاً. لقد لفتت تلك الشابة التي ارتدت بنطالاً سكري اللون أظهر لباساً داخليا لونه أبيض انتباهي: كأنما كانت تقول لي أنها ما زالت عذراء. حين أعود الى بون مرة أخرى، سوف أحتسي قهوة في ذلك المقهى، وسوف

استمتع بالجلوس على طاولاته الأنيقة النظيفة التي تبعث على الارتياح".

" أمس، الخميس، زُرتُ مبنى الـ DAAD. وعلى الرغم من أنني أنجزت معظم ما أتيت من أجله، الاّ أنني طلبت أن يمددوا لي الفترة، ان استطاعوا، غير أن المسؤولة التي ذكرتني بفولتا أستاذة الاستشراق، وهي سكرتيرة السيدة Kruger- Rechmann التي ذكرتني بألف نون، قالت: ليس لدينا نقود. شكرتها وحمدت الله أن ثمة مؤسسات أخرى، غير مؤسساتنا في دولنا النامية، تعاني أيضاً من قلة النقود. أمس أدركت أن السيدة المسؤولة كانت تمثل دور ألف نون. لقد أوحت لي السكرتيرة بهذا. قالت لي عندما سألتها عنها: انها دائماً في اجازة، ونحن ننجز لها أعمالها، وهي توقع فقط. والآن أتساءل: ألهذا السبب أرسلت اليّ الفاكس الذي فيه قدر من التحذير؟ ألهذا السبب أيضا تكلمت معي، في البداية، بطريقة فظة، وكأنني لا أجيد الألمانية؟ هذه هي إشاعات ألف نون. ولكن Kruger-Rechmann بدت، بعد الدقائق الأولى، جد لطيفة".

" الكتابة بسرعة تجعل الخط غير جميل، خلافاً للكتابة بهدوء".

" كأنما لسانُ أمُك حين كلمتها بعد اسبوع من سفرك كان يقول لك ما قاله عرار مخاطباً زوجته:

أهكذا حتى ولا مرحباً   لله ما أقسى قلبَكَ القُلّبا

وكأنما أوحى لك ابوك بعبارته أن هناك من يتوسط لديك لدى الرئيس. قال لي ابي: الله ييسر امرك، فهل قال: قال له ياسر أمرك. لا لستُ بحاجة الى من يتوسط لدي. سوف أقول ما ارى وسوف أعود الى الوطن، ولن أعيش في المنفى الاّ اذا ذهبت بمحض ارادتي، لأنفق عامين أو أكثر ثم أعود. لقد أخبرت زميلي، وانا في بون، بهذا . قلت وأنا أودعه في محطة القطار : سوف اعود الى الضفة، واذا أردت أن أعمل هنا، فلن يكون ذلك من خلال لجوء سياسي سأعود الى الضفة أولاً، وأرتب أوضاعي ثم أعود".

" الليلة كُنتُ في غزة، وكان ياسر عرفات مرتدياً البدلة العسكرية، وقد ذَبُلَ وهو يخطب فيما الناس يُصغون اليه. الليلة رأيت أكرم هنية جالساً على حجر لا يفعل شيئاً، ورأيت ثمة أناساً قليلي العدد يعملون، وحين صحوتُ من الحلم قلتُ: كأن محمود درويش كان يقصد ما نحن عليه الآن حين كتب:

" تضيق بنا الأرض تحشرنا في الممر الأخير".

فهل الضفة وغزة، الآن، في ظل هذه الظروف، هما الممر الأخير والحشر الأخير".

" يقول مثلنا العربي: **الأقارب عقارب".**

صباح الخميس أخذ الرسالة من أستاذ الاستشراق لكي يوصلها الى رئيس الجامعة في الضفة. لم يفكر كثيراً في محتواها، ولم يذكر قصة طرفة بن العبد التي كان كتبها ذات نهار ونشرها في جريدة الفجر بتاريخ لم يعد يذكره بالضبط، وان كان يذكر العام فقط، وهو عام ١٩٧٩. وسأله استاذ الاستشراق عن موعد السفر، لعله أراد أن يعرف، إن أخبره عن الموعد أنه يثق به. وعاد في اليوم التالي، صباح الجمعة الى قاعة الاستشراق، وواصل القراءة. كان الجو ماطراً ولم يكن هناك من يقرأ في القاعة سواه، ولقد افتقد الأستاذة آنيماري شيمل، هذه التي كانت تأتي بين الفينة والفينة وتقرأ ثم تغادر، وكانت أحياناً كثيرة تأتي بصمت وتذهب بصمت، وقد تطلب منه أن يساعدها في مناولة كتاب يقع على رف عال. وفي الحادية عشرة غادر القاعة. ذهب الى كافتيريا الطلبة في مبنى الجامعة الرئيس. كان ثمة طلبة لا يتجاوزون اصابع اليد الواحدة. لفت انتباهه صوت طالبة شقراء كانت تحدث صديقها، وتذكر أندريا كرايسر. لقد كان صوتها يشبه صوتها الى حد بعيد. شرب القهوة وأخذ يقرأ في كتاب كان اشتراه في ذلك الصباح، ثم غادر الى مطعم الطلبة. وقرر هذا النهار ألا يتناول السلطة فقط. لقد أراد أن يتحول من أرنب يأكل الحشائش، كما قالت له أندريا في (توبنغن) الى فكٍ (سمك قرش) يفترس السمك. ذهب الى الطابق الذي يقدم وجبات رئيسة، وتكون وجبة

الجمعة، في جامعة بون، مكونة من السمك والسلطة، وأخذ يأكل السمك. جلس الى جانب الطلبة. نظر الى فتاة ألمانية كان يراها في قاعة الاستشراق، ولكنه لم يحدثها، وابتسمت له. اراد أن يبدأ الحديث معها، واذا بفتاة شقراء تسأله ان كان المقعد الذي أمامه مشغولاً، وجلست، واخذت تحدثه فانصرف عن محادثة تلك الألمانية التي غالباً ما كانت ترتدي بنطال الجينز والبلوزة حمراء اللون.

وما تبقى من ملاحظات ليس بذي شأن، ولكنني سوف أنقلها كما هي، تاركاً، بعد ذلك، له المجال ليقص ما لم يكتبه.

" قصة رندة التي قالت انها مصرية قصة طريفة. تجيد رندة الألمانية وتتكلم العربية بلهجة المصريين. التقينا في (الميزنا) في ٨/٢٣، وبدأنا نثرثر في اشياء كثيرة، ثم اصطحبتها الى مقهى وشربنا القهوة ... الخ ولسوف أقص عنها فيما بعد، وعن ايامي الأخيرة".

كل شيء هنا يدفع المرء الى ان يسافر. ٨/٢٤. المبيت في فندق Mira في مدينة Mainz. أين الوصل؟ 85 ماركاً".

" على يقين من أن الألمان كانوا في غيابي يقرأون كل كلمة كُنتُ أكتبها. الآن، وأنا في الطائرة، اكتشف أنهم لم يصدقوا، على ما يبدو أنني أنا الذي كنت أقرأ وأكتب !! ولهذا فقد أخذ بعض الركاب ينظر إلي، من طرف خفي، وإلى ما أقوم به، حتى يؤكدوا للألمان أنني، وأنا مسافر، كنت أدون ملاحظاتي.

أرى في الوجوه وجوها أخرى، كأنما بدأت اصبح من اتباع مذهب التحلل لا الاتحاد.

اليابانية التي كانت تجلس على يميني أغلقت شباكي النافذة، وهكذا لم أستطع النظر الى خارج الطائرة، وفعل أصحاب المقعد الذي يسبق مقعد اليابانية وزوجها الشيء نفسه، وكنت أرى من خلال النافذة الوحيدة المفتوحة في المكان الذي أجلس فيه، جناح الطائرة. ولقد بدا لي الجانب الآخر بعيداً، ولم يبن منه سوى

الجناح. هذه المرة أخذت أمارس عادة الكتابة على ورق محارم الطائرة لألاحظ كيف يبدو الخط عليها!".

ما لم يكتبه و أدونه لأنني أصغيت اليه منه وأدونه بضمير المتكلم بناء على طلبه.

" جاءت رندة الفتاة الشقراء، يوم الجمعة، اليوم الأخير الذي أنفقه في الجامعة، فغدا السبت، وبعد غد سوف أقلع الى الضفة. وضعت رندة صينية الطعام على الطاولة، ورجتني أن أنتبه اليها حتى تبحث عن محام وعدته أن يلتقيا معا. ولم تغب طويلاً. عادت وأخبرتني أنها لم تجده، ثم سرعان ما أخذت تتكلم، وسألتني ان كنت أعرف من أين هي؟ وحالت رندة بيني وبين تلك السيدة الألمانية. لو لم تأت لكان من الممكن أن أتحاور وتلك السيدة، لكان من الممكن أن نشرب القهوة وأن ننفق معاً بعض الوقت، وكان من الممكن أن أدعوها أيضا لتناول العشاء والخوض في أمور شتى. لكنّ رندة وثرثرتها حالت دون ذلك. تناولت طعامها، وأخذت تحدثني عن اقامتها في بون. أخبرتني أنها تقيم لدى عمها، وأنها ستنفق ثلاثة اشهر فقط، تعود بعدها الى مصر، وسألتني ان كان بامكاني الانتظار لنشرب القهوة معاً. قلت: لا بأس، فهذا اليوم هو يوم نهاية الأسبوع، ثم أنني بطبيعتي أذهب، بعد تناول طعام الغذاء، الى الكافتيريا لشرب القهوة. انتظرتها حتى فرغت من تناول طعامها، وكنت في هذه الأثناء ألاحظ حركات السيدة الألمانية التي دهشت لتجاوبي مع رندة. وغادرنا بعد ذلك، فيم ودّعت الألمانية بنظرات لا تخلو من اعجاب.

وفضلت رندة أن نجلس في ركن منزو. كانت ترتدي قميصاً ذا ازرار، ولسبب ما لم تزرر زراً واحداً، ولم تكن ترتدي مشداً. لقد بان لحم بطنها بوضوح، وأخذت تثرثر عن نفسها. أخبرتني انها تعلمت الألمانية الى جانب العربية، ولاحظت أنها تتقنها، فقد بدأنا التحادث بالألمانية، ولما عرفت أنها عربية أخذت أتحدث معها بالعربية وبالألمانية. وقبل أن اذهب لاحضار القهوة لي ولها دعوتها الى شرب القهوة في مقهى آخر غير كافتيريا

الطلبة، الاّ انها فضلت ان نجلس في الكافتيريا هذه، واخبرتني انها تميل الى الاقتصاد، فما دمنا نستطيع دفع أقل من مارك ثمن فنجان القهوة فلماذا ندفع اربعة ماركات. وقالت لي أنها تميل الى الصوفيين، وذهبت الى أنها تعرف فرقة صوفية في (كولن)، وأنني يمكن ان أصطحبها، اذا رغبت، يوم الأحد لقضاء فترة من الوقت مع الصوفيين.

وكنت، وأنا أصغي اليها، أتابع حركاتها، وآثرت الاصغاء اليها، على مخاطبتها. لم أتكلم الاّ بمقدار، ولكنني لم أخفِ عنها أنني حذر جداً في اقامة اية علاقة، ولم أقل لها أنني سأسافر الى الضفة يوم الأحد، ولم ابلغها أيضا بأنني سأغادر بون السبت صباحاً. قلت لها : لو كنا التقينا معا منذ بداية شهر آب لأنفقنا معاً شهراً جيداً. وتحدثت لها عن المصريين الذين التقيت بهم في بون.

ولم تمانع رندة في كتابة عنوانها لي. أمسكت بالقلم وتناولت كتاباً من كتبي هو : " الأدب في الصراع اليهودي العربي" وكتبت على الصفحة الأخيرة منه عنوانها " مصر - القاهرة - حلوان/غرب حلوان/ مشروع اسكندرية" وسجلت أيضا رقم هاتفها.

وحدثتني رندة عن أبيها واحترامه لقرارها الذي تتخذه. قالت لي أنه رجل يتفهم سلوكها، وأنه لم يمانع في اقلاعها الى ألمانيا، وأنه يثق فيها أيضاً. وسألتني ان كان بامكانها، ان زارت الضفة، أن تزورني في الجامعة.

وقلت لرندة: لقد اقتربت الساعة من الثانية، فما رأيك في أن نذهب الى مقهى آخر، نجلس فيه ونتحاور بهدوء. ونسيت رندة الشخص الذي كانت تنتظره واستعدت وسرنا معاً. مررنا من أمام مكتبة (Buchladen 46) فأخبرتها أنّ هذه المكتبة تهتم بآداب العالم الثالث، ثمّ داهمنا المطر، فدخلنا الى مقهى غير بعيد عن المكتبة. كان المقهى فاخراً، ولم اتردد في دفع خمسة عشر ماركاً مقابل الجلوس فيه لمدة ساعة أو ساعتين. همست في سري: لا أدري

متى سأعود الى ألمانيا من جديد. وكان ينبغي أن أستمتع في هذا الشهر !!.

دخلنا المقهى، وكانت فيه ثمة عواجيز يتحدثن بهدوء، فتذكرت أيام فرايبورغ والمقاهي التي ترددت عليها فيها. وقلتُ لرندة: ثمة مقاهٍ للشباب، وأخرى للمتقاعدين، ويبدو أن رواد المقهى من القسم الثاني. وبعد لحظات جاءت النادلة، وكانت أمرأة في الخمسينات. شربنا القهوة أولا، ثم شربنا الكوكاكولا، وكانت رندة في البداية تظهر لحم بطنها، ثم سرعان ما ذهبت الى الحمّام وزررت القميص وعادت لتواصل كلامها عن مصر والمصريين والغرب والغربيين.

ينبغي أن أقول أنني كنت حذراً جداً، وخشيت أن تكون رندة على اتصال بجهة ما، وبخاصة حين ذهبت الى الحمام. وقلت لها بعد جلوس ساعة. انا أرغب في أن أغادر، وسرنا معاً. دعوتها الى دخول السينما، فآثرت أن يتم ذلك مساءً، وتحديداً في الثامنة، واقترحت أن نصعد قطار الشوارع وأن نتجول في ضواحي بون، أو أن نذهب الى مدينة (كوبلنز) المجاورة. دعوتها الى مكان اقامتي فاعتذرت، ودعتها وقلت لها أنني أرغب في النوم. وافترقنا.

وكنت ألاحظ، ولقد كنت ارتدي بنطالاً نيلي اللون، أن رندة كانت تنظر اليّ وتتفحصني، وتنظر الى أمور أخرى، وأخذت أبتسم في سرّي، وهذا هو الذي شجعني الى دعوتها.

مساء يوم الجمعة كنت أتجول في السوبرماركت القريب من مبنى الطلبة. أردت أن أشتري بعض زجاجات ماء وعصير وقطعاً من الحلوى. ولكنني وجدت نفسي مسوقاً الى مطعم يعود لمواطن سوري. تحدثت معه، وكنت زرتُه من قبل مراراً، وسألني ان كنت أقيم في بون. ورددت عليه بأنني في زيارة قصيرة سرعان ما أغادر بعد انتهاء مدتها. وكنت ألاحظ بعض الناس ينظرون الي وكأنهم يعرفونني جيداً، كأنهم أيضاً، يتساءلون عن سبب تسوقي، وأنا من السفر قاب قوسين وأدنى. وأخذت ذلك

المساء ألملم أشيائي واستعد للرحيل. اتصلت بصديق لي يقيم في (كولن)، وأخبرته أنني سأزوره غداً، لأبيت عنده مساء السبت، ولأسافر صباح الأحد، وغيّرت رأيي لأنني آثرت ألا أعيش يوما بائساً في ألمانيا، فما رأيته، يوم زرته، أكد لي أن الذين يذهبون الى هناك، يفكرون في المادة كثيراً.

الشاب العربي الذي أفاق صباح السبت مبكراً، سألني وأنا أحمل حقائبي ان كنت سأسافر، ومن اين، فأجبته أنني ذاهب الى (كولن)، ودّعني وتمنى لي سفراً موفقاً. واستقللت القطار المتجه الى (بون)، ومن هناك، استقلّلتُ القطار المتجه الى فرانكفورت.

وفي محطة القطار احتسيت القهوة وتناولت طعام الافطار. لقد سبب لي هذا اشكالات لا ضرورة لشرحها. فكرت أن أذهب الى مقهى (لوبك)، لأجلس هناك ساعة، أشرب خلالها القهوة، وأودع العمال، ولو من خلال النظر، ولكنني وجدتني أستقل القطار السريع.

في القطار رأيت مجموعة من الألمان، بدوا فرحين الى درجة لا تصدق. كنت أجلس الى جانبهم وأصغي أحياناً الى بعض عبارات يتفوهون بها، وبدا لي أنهم مجموعة متجانسة، لقد تخيلتهم اساتذة جامعيين عادوا من رحلة استمتعوا فيها. حاولت أن أقرأ قليلاً، ولكنني قلت: ثمة متسع من الوقت للقراءة، والأجدر أن أستمتع بمنظر النهر والطبيعة، وهذا ما كنت أفعله من قبل يوم كنت أسافر من فرانكفورت الى بون. ولم تَحل ضحكات الركاب وثرثراتهم دون استمتاعي بمناظر الطبيعة الأخاذة، وحين اقترب القطار من مدينة (ماينز) استعدوا للمغادرة. فكرت في أن أنفق الليل في هذه المدينة، وتذكرت (فيفيان) ووالدها أستاذ الأدب الألماني الذي يدرس في الجامعة، في المدينة نفسها، ولكنني واصلت السير الى فرانكفورت. قلت أتعرف جيداً على هذه المدينة وازور المبنى الزجاجي فيها، ولكنني ما ان خرجت من محطة القطار صوب المدينة حتى وجدت نفسي أقفل الى محطة القطار عائداً. جَلستُ في مطعم ماكدونالدز، تناولت وجبة سريعة،

وشربت الكولا، وعدت الى مدينة (ماينز). لم افكر في (فيفيان) كثيراً، فلعلها الآن في عالم آخر، لعلها تستقل الطائرة عائدة الى ألمانيا، ولم أبحث عن اسم ابيها في دليل الهاتف لأتصل بها. كنت في القطار أحاور رجلاً ألمانياً وأمرأة تجلس الى جانبه، وقد استقلا القطار لزيارة (ماينز). قالا لي أنهما يقيمان في فرانكفورت، وانهما يقضيان يوم السبت في (ماينز) لشرب البيرة والاستمتاع بالجلوس على مقاهي المدينة. تحدثنا عن الشعوب، وعن العرب واليهود، وعن الجرائم في مدينة (فرانكفورت). وتمنيا لي وقتاً طيباً.

" هل سنلتقي يا فيفيان؟" همستُ، وأضفت: " ومن كان يظن أنني سأعود الى ألمانيا ثانية؟". بحثت عن فندق أقضي فيه الليلة المتبقية. ذهبت الى الفندق المقابل لمحطة القطار، وهناك استقبلتني (بربارة) في جسد امرأة أخرى. كانت موظفة الاستقبال ترتدي الملابس السوداء، وكانت جميلة جداً، وقد ذكرتني ببربارة. قالت لي ان الغرف المتوفرة مزدوجة، وأنها تكلف غالياً، ونصحتني أن أذهب الى فندق (Mira) المجاور، اذ يمكن أن أعثر على غرفة بسرير مفرد. واستقبلني الموظف الايراني (رحماني). رحبّ بي، وأعطاني مفتاح الغرفة، ولم أعطه اسماً غير اسمي. أبلغته عن اسمي دون مساءلة ان كان صديقا لبربارة ويعرف عن علاقتي بها. وفي الغرفة رقم (٢٩) استلقيت على السرير. لم أنزع ملابسي، ولم أفكر الاّ بالاسترخاء، وعندما حان وقت المغرب أخذت أتجول في المدينة. كانت (ماينز) ساحرة، وندمت أنني لم أزرها من قبل. لقد تذكرت (فرايبورغ) والأيام التي أنفقتها فيها. سرت في شوارعها وحيداً. أكلت البوظة، ولم أتناول طعام العشاء، وقبل أن أعود الى الفندق ذهبت الى محطة القطار، وتجولت فيها، أخذت أنظر لى الكتب، ولم أنتبه الى تلك الفتاة الاّ حين اقتربت مني تعرض علي المساعدة. كان صوتها يشبه صوت (فيفيان). ولا أدري لماذا لم أسألها ان كانت أختها. كانت ترتدي بلوزة نارنجية اللون وبنطالاً محكماً احمر اللون، وكانت

فتاة هادئة وديعة، أو هذا مااستنتجه من صوتها. قلت: يا الهي، انه يخلق من الشبه أربعين. واعترف بأنني ندمتُ ندماً شديداً لأنني لم أسألها عن فيفيان وعن مدرس الأدب الألماني في جامعة (ماينز)، فهل كنت محقاً في هذا؟.

عرفت (فيفيان) وزارتني مراراً، ولقد دعوتها، ذات مساء، الى بار البطة، وشربت البيرة فيما احتست العصير، وكنّا نسير معا ونتحادث دائماً، ولكنها كانت تحيرني حيرة شديدة. حقا انني لم أفكر في اقامة علاقة دائمة معها، وكنت أعرف أنها تعرفت على شاب يدرس معها في القسم نفسه، وقد أبلغتني أنه مجرد صديق، الاّ أنني لم أكن أمانع في افتراسها، اذا ما استطعت ذلك. غير انّ موقفي منها تغير في العام الأخير من اقامتي في بامبرغ. لقد تعرفت (فيفيان) على شاب عربي من عرب الداخل، وأخذت تعلمه الألمانية، وكنت أعرف منها ما كانت تقوله لها رورو وكاسب، ولم يكن هذان يعتقدان أنني أمشي معها لأعرف من خلالها ما يجري.

تركت محطة القطار، وتركت (فيفيان) في جسد تلك المرأة التي ارتدت البنطال المحكم. لعلها أيضا حزنت لأنني لم اسمح لها بمساعدتي، ولعل (فيفيان) روحاً حلّت في روحها، وقلت وأنا ذاهب الى الفندق: أين أنت يا فيفيان؟ هل يمكن أن نعود صديقين يتحاوران كلما التقيا؟ وهل ستذكرينني بذلك العربي الذي التقيت به ولم يفكر حين انفردتما الاّ بافتراسك؟ أما زالت تلك فكرتك عن العرب؟ أم أنّ أيامي الأخيرة في (بامبرغ) قد أثرت عليك، وجعلتك تدركين معنى أن يكون المرء فلسطينياً؟ وكنت أعرف أن (فيفيان)، من خلال صلتها ببرنو، تتعاطف مع اليهود، ولكنني لم أكترث لهذا كثيراً.

ذلك المساء أمطرت السماء مطراً غزيراً، ولقد آثرت ترك النافذة مفتوحة، وغططت، في العاشرة، في نوم عميق حتى أصحو مبكراً وهذا ما كان. صحوت في الخامسة وذهبت الى الحمام ثم استحممت في الغرفة، وحملت حقائبي وغادرت الفندق. ودّعني

رحماني بصمت بيّن ولا أدري ان كان حزيناً لأنني غادرتُ. وفي قاعة محطة القطار شربت ثلاث كاسات من القهوة وأخذت أنتظر القطار الذاهب الى مطار فرانكفورت. رأيت وجوها كأني أعرفها. رأيت تلك الفتاة الروسية التي كانت تدرس في (كولن) هاربة من صديقها الذي كان يلاحقها، وكأن أمها أيضا لم تكن ترغب في أن تستمر علاقتهما معاً، ورأيت ماريانو وهي تستعد للاقلاع. وحين وصل القطار الى محطة المطار هبطنا، وما زال النوم باديا على عيوننا جميعاً.

كيف رأيت في ساحة المطار قريبي الذي يقيم في أريحا، وكيف رأيت رورو في مكان بيع الحقائب والشنط؟ لا أدري. غير أن رورو كانت ترتدي تنورة سوداء، اللون ومعطفا أسود، وكانت تنظر الي نظرات استعطاف. فكرت في أن أشتري من المكان الذي كانت فيه حقيبة الاّ أنني تراجعت، لقد كان ثمنها مرتفعاً، وهمست في سري: هذا تبذير واضح. ولما اقترب موعد اقلاع الطائرة تركت قاعة المطار وسرت باتجاه المكان المخصص لاقلاع الطائرات المتجهة نحو تل أبيب. وهناك ناولت تذكرة الطائرة للموظفة الألمانية. ابتسمت لي، وأخبرتني أن بامكاني حمل حقيبة واحدة فقط، فيما ينبغي ترك الثانية حتى توضع مع أمتعة المسافرين. لمّا ناولتني التذكرة ابتسمت من جديد. نظرت الى التذكرة فوجدتها مثنية بطريقة لافتة للنظر. ثمة عبارة بالألمانية مكتوبة بحروف بارزة توضح لحامل التذكرة تعليمات رحلة الطيران، والعبارة هي "تنبيه مهم". لقد أصبح معنى العبارة بعد ثني جزء من التذكرة "رجل مهمٌ"، وغضضتُ الطرف عن هذا ، وتساءلت ان كنت حقاً رجلاً مهماً.

وأنا جالسٌ في المكان المخصص لركاب الطائرة المقلعة الى تل أبيب، رأيت الضفة والماضي واليهود وبعض الألمان. جلس أمامي شاب ضخم الجثة، بدا لي عربيا، وأخذ يفتل عضلاته، فتذكرت ذلك الشاب الذي هددني وأنا عائد من رام الله الى نابلس، ولم أكترث له كثيراً، وسرعان ما غيّر مكانه، وأخذت أنظر الى

أمامي فوجدت شابة تشبه زوجة ألف باء راء المكتوب عنه في رواية "تداعيات ضمير المخاطب"، ابتسمت لي فابتسمت لها، على الرغم من انها كانت تجلس الى جانب أبيها، وأخذنا نغازلُ بعضنا بالعيون. ورأيتُ رغدة النصراوية في جسد أمرأة تشبهها. كانت تنظر بجد ووقار، وتوحي اليّ أنني صادق في كل ما كتبت، وحين وقفنا استعداداً لمغادرة القاعة رأيت عاموس عوز في شخص آخر، رأيته يبتسم لي كأنه يقف الى جانبي، وتساءلت ان كان عرف أنني اشتريت روايته وقرأتها، ولهذا فقد أظهر لي الودّ.

في الطائرة كان المكان الذي جلست فيه لافتاً للنظر. جلست الى يساري فتاة ألمانية صغيرة الحجم، وكان المقعد الذي على يسارها غير محتل من أي راكب، فيما جلس الى يسارها رجل ضخم الجثة، رأيت فيه تارة (هيلموت كول) وطوراً (اريك شارون)، وتصرفت الفتاة، ابتداء، بفرح طفولي، ولمّا لم أبادلها الحديث، غطت في نوم عميق. أخذت أقرأ في مجلة (شتيرن) مقابلة مع الكاتب الكولومبي (غابرييل غارسيا ماركيز)، كما قرأت صفحة من روايته الجديدة التي نشرت المجلة جزءاً منها، وتركت المجلة، فيما كان الرجل يتصفح المجلات والجرائد، ولم يلتفت، طوال الرحلة، الى أي شخص آخر. لقد كان قارئاً نهماً.

وفي الطائرة أيضا رأيت مطلقتي في جسد مضيفة، ورأيت رورو في جسد مضيفة أخرى. لقد جلستا في مكانين متباعدين، ورأيت أيضا (بيتر) الألماني الذي تعرفت اليه في فرايبورغ، وكان أخبرني أنه زار نابلس، وأقام في البلدة القديمة فترة من الوقت، وناولني الطعام بطريقة لافتة للنظر، الطعام الذي يجعل الصغير يصغر ويتضاءل حجمه، وتساءلت ان كان هذا هو السبب الذي حدا بهم الى اجلاس تلك الفتاة الى جانبي.

ورأيت البحر الأبيض المتوسط من جديد. رأيته هادئاً رصاصي اللون، ولم أتخيل ما أتخيله دائماً من أنّ الطائرة ستسقط، وأن سمك القرش ينتظرني، كما كنت أنتظر السمك البشري.

كانت الفتاة التي أخذت في المطار تسألني أسئلة امنية تتكلم بلهجة مصرية، وقالت لي أنها مصرية الأصل، ولم استغرب حين سألتني عن الورقة التي تدعوني فيها مؤسسة الـ DAAD لزيارة ألمانيا، الورقة التي كنت دوّنت عليها، وأنا في الطائرة، انطباعاتي عن معاملة الفتيات الاسرائيليات لي، في أثناء سفري. قلت: ثمة تنسيق ما بين هنا وهناك، وما بين العرب وهؤلاء جيمعاً. لقد حركت الموظفة جسدها بطريقة لافتة للنظر، وأبدت لي عجيزة على قدر من الجمال. ابتسمت وقُلتُ: لهذا سألتني عن الورقة.

كان السائق الاسرائيلي، الذي أقلني من المطار بسيارته، من المهاجرين الجدد الذين قدموا من روسيا. حين استقللت سيارته متجها نحو القدس، لم أسأله عن الأجرة، غير أنني لاحظت أن المسؤول عن تنظيم السيارات قد أوحى له أنني أملك الكثير من المال. في الطريق أخذنا نتحدث معاً، تارة بالعبرية، وطوراً بالانجليزية، وكان حديثاً مضحكاً، فلا أنا أجيد العبرية، ولا هو يجيد الانجليزية، وقد نقدته مائتي شيكل أخذها دون أن يعيد منها شيئاً، حتى في الوقت الذي غيّر فيه مسار الرحلة نحو قلقيلية. لقد سألته، ونحن متجهان نحو القدس، ان كان بامكانه تغيير مسار الرحلة فوافق. أخبرني أنه قدم الى البلاد منذ سنوات، وكان، من قبل، يقيم في (كييف) بالاتحاد السوفيتي، ولما سألته ان كان مسروراً هنا، أجاب بأن أرض اسرائيل هي أرض يهود العالم كلهم، وأنه، بناء على ذلك، مسرور. وقلت له: اننا من يافا ولا يحق لنا العودة اليها، فصمت. وكان السائق تارة يخفف السرعة، وطورا يسرع، وكان في هذه الأثناء ينظر الى حركاتي وملامح وجهي. لعله اراد اختباري ومعرفة فيما اذا كنت خائفاً، ولقد فعلت الشيء نفسه. أخذت أراقب حركاته، وبدوت واثقاً من نفسي غير مكترث اطلاقاً لحركاته.

لما اقتربنا من نقطة التفتيش الاسرائيلية ، قبل مناطق السلطة الوطنية قال لي ان السلام سيعم، وأن المستوطنات التي

شاهدناها على الطريق انما هي مستوطنات تبنى من أجل أن يقيم فيها المستوطنون المقيمون في الضفة، وتردد أن يوصلني الى قلقيلية، ثم أنزلني عند الحد الفاصل بين النقطتين، وقد أخذ يلمح لي من خلال ولاعته أن ما يشاع عني علمياً ليس سوى غيرة وحسد. ودعته بعبارة "شالوم" و "لهتروؤوت" واتجهت صوب نقطة الحدود الفلسطينية، ولم يختلف السائق العربي الذي اقلني عنه. لقد أخذ منيّ عشرة شواقل، وكنت أعرف أنه، مثل اليهودي، قد استغلني، وحين سألني فيما اذا كنت قادماً من أمريكا أجبته بأن نعم !.

وكنت في الطريق الى نابلس أفكر في اتصالي الأخير بأبي، هذا الذي طلب مني أن اسافر الى القدس أولاً، ومنها اسافر الى نابلس. وأخذت أنظر الى المستوطنات التي تكبر، وأفكر في الحل الذي جرى، وتذكرت الفتاة اليهودية ذات اللهجة المصرية، هذه التي بدت مؤخرتها، كما أبرزتها، لافتة للنظر، ورأيتنا والحل الذي أنجزناه مثل مؤخرتها. يلتفت الينا العالم ويبارك الابتسامات ومصافحة الأيدي، ولا يعرف أن الداخل مختلف.

٣٠/٢٩/٢٨ كانون أول ١٩٩٦
١٤/١٣/١٢/١١ نيسان ١٩٩٧

ملحق

القصص الثلاث التي أتى على ذكرها في النص، وكان قبل سفره كتب واحدة منها هي " كأس نبيذ حزنا على موت الكلب" واثنتين بعد عودته، وهما: "حدث هذا أيضا ثانية" و " شرق وغرب، ريف ومدينة". بالاضافة الى نص: "هو وزوجته ... واشارة الاستفهام"، الذي أرسله الى جريدة الأيام ولم تنشره، وكان أيضاً أتى على ذكره في بداية النص.

الكاتب

عادل الأسطة

١٩٩٧/٥/١٠

"حدث هذا أيضاً ثانيةً!!"

لم يكن قَد مرّ شهرٌ كاملٌ على اقامتي في مدينة (فرايبورغ) الألمانية التي أُرسلت عام ١٩٨٧ لِتَعَلُّم اللغة فيها حتى اصبحت، بفضل شاب مصري التقيتُ به في معهد (غوتة)، أعرف مطاعمَ الطلبة أكثرها؛ تلك التي تقع في وسط المدينة، وتلك التي تبتعد قليلاً عن السوق المركزي. وكانت الأخيرة تفتح أبوابها مساءً لتقدم وجبة عشاء تتكون من البطاطا المقلية التي يقبل الطلبة على اكلها باستمتاع ملحوظ، وبخاصة حين يشربون معها البيرة التي يحضرونها من الثلاجات الموضوعة في صالة المطعم.

وبعد المرة الأولى التي زرت فيها ذلك المطعم، وكان ذلك بصحبتة فوزي المصري وماهر السوري، أخذتُ كل مساء أتردد، بصحبة زميل عربي، على ذلك المطعم. تارة نذهب ماشيين، وطوراً نستقل قطار الشوارع. وغالباً ما كنّا نثرثر عن اللغة والحياة والنساء، بل وكنّا نحاول قراءة لافتات المحلات علّنا نتعلم اللغة الألمانية اليومية التي تعرفنا بدكان الحلاّق أو اسم الشارع أو اسم المبنى التجاري. ولم يكن الانتظار، من أجل شراء بطاقات العشاء أو تناول وجبة العشاء، ليزعجنا، فقد كنت شخصياً اراقب الطلبة وهم يتحدثون فرحين، واصغي الى بعض كلمات عابرة علّها تثبت في الذاكرة، أو علّني انطقها، فيما بعد، نطقاً سليماً. ولقد ذكرتني تلك الليالي بالليالي الجميلة التي أنفقتها في الجامعة الأردنية يوم كنت أدرس الماجستير هناك، الليالي التي كانت الأجمل لأنني كنت أنفق فيها ساعة، وأنا أتناول طعام العشاء في مطعم الجامعة مع صديقة تعرفت اليها، صديقة ترددت في البداية على الاتيان مساءً، ثمّ سرعان ما أخذت تأتي مع صديقتيها الجنوبيتين اللتين تركتا لها، فيما بعد، المجال لتأتي وحدها.

وذات مساء، فيما أنا واقف تحت الشجر أنتظر أن يفتتح المطعم أبوابه، وكان ثمة مطر أخذ يتساقط خفيفاً، جاءتني فتاة ألمانية على قدر من الجمال، وكان كل ما فيها يسبّح باسم خالقها الذي خلق فأوفى وأكمل، وسرعان ما أخذت تكلمني بالألمانية،

ويبدو أنها لاحظت أنني أجنبي قَدمَ الى (فرايبورغ) حديثاً. قالت لي أنني طالبة ألمانية، وأنا أدرس هنا، ولكنني لا أملك ثمنَ وجبة عشاء، وأرجو منك أن تعطيني بطاقة واحدة علّني أستطيع الذهاب الى النوم دونما جوع.

ولقد دُهشتُ لكلامها هذا، ولم استطع أن أحاورها كثيراً، فلم تكن لغتي الألمانية تسمح لي بذلك. حاولت ان اتكلم فتعثرت، ولم أخضع للدهشة التي اعترتني، فمن الممكن أن يجوع المرء في العالم الثالث أما ان يجوع المرء هنا !! .

ولقد وجدت نفسي وأنا أنظر الى جمالها أمدّ يدي الى جيبي وأخرج منها بطاقة غير تلك التي كانت بيدي، وقبل أن أعطيها اياها قلت لها أنني قدمتُ حديثاً الى (فرايبورغ)، وأنني أتعلم اللغة الألمانية في معهد (غوتة)، واقيم في الغرفة رقم ٢٠٥ من مبنى (البازل تور)، واقترحت عليها أن تزورني علّها تساعدني في تعلم اللغة. ونظرت اليها وهي تخرج قلماً من حقيبتها وتدون على احدى أوراقها عنواني. ولم أتردد في اعطائها البطاقة على الرغم من أنني منذ خمسة عشر عاماً، وتحديداً حين كنت في الأردن في عام ١٩٧٢، قررت ألاّ اساعد أيا من هؤلاء الذين يتذرعون بحجج واهية غير مقنعة لاستلابنا أموالنا. وكان سببُ قراري أني كنت مسافراً من عمّان الى الزرقاء، وأنني، يومها، التقيتُ بطفل باكستاني أخذ يرجوني، بالانجليزية، أن أنقده قرشين حتى يستطيع اللحاق بوالديه اللذين يقيمان في الزرقاء، ولمّا فعلت ذلك، وأخذت أنظر اليه وجدته يقف مع شخص آخر ويرجوه بمثل ما رجاني، وكرّر ذلك مراراً، ولم يسافر الى الزرقاء، وقد سألت عن هذا الطفل وأمثاله فعرفت أنهم يمتهنون الشحاذة.

وأخذت اتابعُ الفتاة وهي تبتعد، وأشيّعها بنظراتي، ولم تبتعد عني كثيراً حين رأيتها تحادث رجلاً في الستين من العمر، بدا ذا لحية غير حليقة، رثّ الثياب ممزقها، محدودب الظهر، رجلاً ذكرني بذلك الرجل المسنّ الذي رأيتهُ قبلَ فترة في مطعم

الجامعة الرئيس في وسط المدينة، وكان الأخير يحضر وجبة الطعام وسرعان ما يخرج من حقيبته وعاءً معدنياً ليضع الوجبة كاملة فيه، ليقوم بعد ذلك الى الطاولة التي يقف أمامها رجل وامرأة ويزودان الطلبة الذين لم يشبعوا من الوجبة الرئيسة بطعام اضافي، ويطلب المزيد من الطعام، حتى اذا ماأحضره أخذ يتناوله بشره. وكنت أعقب على هذا بعبارة واحدة: يحدث هذا في ألمانيا!!.

ونظرت الى الفتاة والرجل المسن جيداً، مدّت يدها التي كانت قد وضعتها، اثر مغادرتي، في جيبها، وناولت الرجل البطاقة، وذهبت الى صديقها الذي كان ينتظرها غير بعيد وسارا معاً، فيما سار الرجل باتجاه آخر غير الاتجاه الذي يؤدي الى صالة الطعام. قُلتُ: لعلني أراه غداً في المطعم الرئيس يفعل ما فعله الرجل المسن الذي يشبهه، ولم أعُد بعد ذلك أعطي أي متسول مبلغاً من المال، وان كنت لا أمانع في القاء بعض (الفنجات) لعازفي الموسيقى، أو لذلك الرجل الذي يحضر، بين فترة وأخرى، كرّه الهزيل ليجمع من أجلهما المال.

وسرتُ باتجاه صالة الطعام لأتناول البطاطا المقلية التي تقدمها، غالباً، سيداتٌ فرحاتٌ مرحات، سيدات يزدن غالباً الكمية عن المقدار المحدد ويبتسمن لنا ابتسامات تقلل من شعورنا بالغربة، كأنما كنّ يعرفن اننا قدمنا الى المدينة حديثا، وأننا بحاجة الى من يتعاطف معنا حتى لا نشعر أننا غُرباء.

وأخذت، وانا عائدٌ في الطريق، أحدثُ زميلي العربي الذي كان قد وصل من بلاده قبل أسبوع، بما حدث معي أثناء غيابه عني لشراء بطاقات خاصة به. وقد أصغى الى القصة جيداً، وفرح آملاً أن تكون لها صديقة علّه يتعرف اليها. وأخذت انتظر تلك الفتاة، وكلمّا كان ثمة قرعٌ على الباب أذهب بفرح علّ التي وَعَدت تفي بوعدها، ومرّ الشهر دون أن تأتي.

هذا الصيف، صيف ١٩٩٦، وجدتُني وأنا أحدّث امرأة تجلس الى جانبي على مقعد في وسط العاصمة (بون)، انصاع

لكلامها من جديد، ووجدتني أُنقِدّ ذلك المتسكع ماركاً غير آبه لكلام الزعيم الألماني الذي اتخذ موقفا حاسماً من هؤلاء العاطلين عن العمل. فما الذي جعلني أفعل ذلك غير متردد؟ ولم يكن يخطر ببالي اطلاقاً أن أدعو المرأة هذه الى غرفتي لأتعلم اللغة أو لأغازلها، تماماً كما لم أدعُ الرجل الطاعن في السن الذي زارني في غرفتي رقم (٢٠٥) في مبنى البازل تور لزيارتي مرة ثانية، وقد جاء ليعلمني اللغة وليتحدث لي أيضاً عن فضائل المسيحية.

غادرتني المرأة وقد تمنّت لي نهاية أسبوع سعيدة، وبقيت مدة ساعة أو يزيد جالساً أنتظر امرأة، ولما اقتربت الساعة من الثانية، وبدأت المحلات تغلق أبوابها، غادرت الى غرفتي في (تانين بوش وسط). استلقيتُ على الفراش وغططت في نوم عميق، نوم اختلطت فيه (فرايبورغ) بـ (بون) والمرأة الكبيرة بالشابة اليافعة، والمتسكع بالمتسكع، والغرفة رقم (٢٠٥) بالغرفة رقم (٢٠٥)، وحين أفقت وَجَدتني في الغرفة وحيداً وحيداً الاّ من بعض كتب وزجاجات ماء وبعض قطع من الجاتوه.

شرق وغرب، ريف ومدينة

فجأة لم أعد ابصرها. كأنما اختفت دفعة واحدة. لم أكن اراقبها، فهي امرأة متزوجة، ولكني كنت أرى فيها أوروبا. امرأة من نار. امرأة وضاءة لم تتركني، حين المحها، افكر ولو للحظة واحدة بما فعله الاستعمار بنا. كأنها، وهي تمشي سيدة في الشارع أو في الجامعة، تسحرني لكي لا ارى في الانسان سوى الانسان، لكي لا أرى في الانسان سوى جانب الخير ووجه الجمال. وحين ألتفت اليها يمسني ضوء سماوي يبطل فيّ حواسي كلها، وأرى نفسي تتوق الى رؤية وجهها الوضاء. ترتدي بلوزتها وتنورتها وتسير بقامة منتصبة، قامة تعانق السماء. هل كُنت أشتهيها؟ لا أعتقد ذلك اطلاقا. لقد كنت أشتهي رؤية الجمال وهو يسير مجسداً في الانسان.

ولمّا التقيت بزوجها سألته عن أحواله هنا. استفسرت منه ان كان الغربيون يستطيعون العيش هنا بلا اشكالات. ولم يتكلم

كثيراً. قال عبارة واحدة واكتفى بالصمت: لقد طلبت ان تغادر الى بلادها ، وغادرت.

وكنت أصغي، فيما بعد، الى ما يقال عنه. لقد جعلوا منه رجلاً بلا أخلاق. استغلها وحقق ما يريد من وراء زواجه منها، وتركها ليتزوج من امرأة عربية.

وكانت المدينة كما هي. لم يتغير فيها، منذ سنوات، أي شيء ولمّا كانت الانتفاضة تحّول الناس الى حيوانات داجنة، أخذوا يألفون البيوت ويمارسون فيها حياتهم، واذا ما استبدّ بهم الضجر، هاتفوا بعضهم من وراء سماء. لم تعد ثمة دورٌ للسينما، ولم تعد ثمة متنزهات أيضا، وأصبح الجدارُ بين المناطق والمناطق عالياً. لقد انتهت تلك الليالي التي كان فيها أهل المدينة يقطعون الخط الأخضر لينفقوا الليل كله في تل أبيب أو في نتانيا، ولم يعد أحدٌ بقادر على الذهاب، يوم الجمعة، في رحلة أسبوعية.

وكنت أسأل نفسي: لعلّها تحن الى عالمٍ بلا حدود. ولم افكر كثيراً في العلاقات بينهما. ولم أُجز لنفسي الابحار في عالمهما الخاص. ثمة امرأة أحبت رجلاً، وضحّت من أجله، وجاءت من بلادها لتقيم معه في بلاد تبدو مدنها قاحلة. تفتقد المدينة مسرحاً، وتفتقد مسبحاً، وتفتقد شوارع نظيفةً آسرةً خلابةً، وتفتقد الأشجار والأمطار والأنهار والمقاهي الليلية،وتفتقد المدينة الحبّ أيضا. وفي نهاية الانتفاضة وزع ذلك المنشور الذي يهدد مَن الفتيات من يرتدين بنطال التايت، فهل قرأته وسافرت؟.

فجأة غابت. فجأة أصبح الشارع قفراً. لم أعُد اراها، ولا أدري لماذا أخذت ابصر في الشارع نفسه التراب والجبل الأجرد الذي يقع الشارع فيه. هل كانت تلك السيدة حقا تسحرني؟ هل كانت تسلب عقلي لكي لا أرى في هذه الدنيا سوى الجمال؟ واردت أن اسأل زوجها ان أصيب باكتئاب شديد، ولكنني تراجعت، فهذه أمور جد شخصية وعلى المرء ألاّ يخوض فيها، واكتفيت بأن أثرت بعض الاسئلة مع أولئك النسوة اللاتي جئن يتعلمن العربية، عن حياتهن هنا. بدا عدم السرور على وجوههنّ، ولكنهنّ أخذن

يضحكن على لهجتهن العربية، فنسين الغربة، وواصلن الحضور، وأشرنَ الى قرب الصيف وموعد السفر.

وكان فارس هناك يسير وزوجته الألمانية، وحين يستبد به حنين الى أهله يأتي لنمشي معا على ضفة النهر. ولم اصغ اليه ذات مرة يتحدث عن رغبة في الزواج من شرقية. ترك قريته واستقر في البعيد، وحين كانت زوجته تأتي لتقيم مع أهله في القرية، تصمت لمدة شهر، هو مدة اقامتها، وتعود قافلة الى هناك. ولم تَرَ في فارس شاباً قروياً. كانت ترى فيه شاباً بامكانها أن تعيش معه، دون التفات الى الريف فيه، فالريف بعيد.

وأتذكر ذلك المساء الذي جاءني فيه ذلك اليساري. كان بالنسبة لي مساءً عادياً. كنت أجلس في شقتي اقرأ وأشرب القهوة. ولمّا طرق الباب أذنت له بالدخول، فاقترح ان نذهب الى غرب المدينة، اذ بامكاننا هناك أن نشرب الشاي، وأن نتحدث بهدوء، بعيداً عن الغرف الضيقة. ورأيت أنه متضايق جداّ. كنت أعرفه منذ فترة ليست بالطويلة. سمعت عنه قبل أن ألتقي به، وقرأت له بعض قصص كتبها وهو في السجن. ولمّا لم ينجح زواجه الأول لعدم التكافؤ بينه وبين المرأة التي تزوجها، - هكذا قال لي رفاقه - فقد تزوج من جديد زواجاً فصيلياً. كانت الفتاة ابنة البيئة المدينية والطبقة البرجوازية تنتمي الى الفصيل الذي ينتمي اليه، وكانت أراؤهما متطابقة: يحلمان بوطن محرّر وبعالم بلا طبقات. ولقد بارك الفصيل كله هذا الزواج، وباركه أهلها أيضا الذين لم يروا في ذلك منقصة اطلاقا، ولم يحل ثراؤهم بينهم وبين التعامل مع الآخرين بمودة واحترام. كانوا عمالاً حرفيين وبسطاء، ولم تجعل المادة منهم بشراً عفنين.

قال لي: لقد طلبت زوجتي مني الطلاق.

ولقد بدا صوته حزيناً تكلم بنبرة أوحت لي أنه متضايق جداً. قلت له: طلقها فوراً. ولم أفلسف الأمور كثيراً. لم أتحدث عن الطبقة والتعالي، فلقد رأيت اباها، ذات نهار، يتناول في أحد

المخيمات طعام الافطار، وكان بصحبة عامل من عماله الذين انحدروا من المخيم.

وصمت للحظة ثم واصل الكلام: طلبت منها أن تفكر في الموضوع جيداً. لقد ركبنا السيارة وسرنا في شوارع المدينة، وأخذت أحثها على التفكير. وتابع: ولكنها كانت تزداد اصراراً. وكررتُ عبارتي: طلقها فوراً.

وأخذت، وأنا جالس في منزلي، أفكر في أمرهما. لم ألتق بها من قبل اطلاقاً، ولا أعرف الآن شكلها. كانا يقيمان في المدينة، وكانت قريبة من أهلها، ولم يكن البيت يخلو من اجتماعات الرفاق والرفيقات. لقد رأيا في الفصيل شغلهما الشاغل، ولم يكترثا، يومها، كثيرا لعدم الانجاب. وفجأة ترك منزله في المدينة وعاد ليقيم مع أمه وأخته في الريف. وهناك قالت له: طلقني.

وتذكرت افراد الفصائل اليسارية. تذكرت الكلام الذي كانوا يتفوهون به. كان الفصيل فوق العائلة، وكان افراده لا يفكرون في أهلهم قدر تفكيرهم فيه. لقد كان الانتماء ألأول الأخير لهم. يندفعون جميعاً وهم يحلمون بعالم بلا عائلات وبلا جغرافيا وبلا طبقات وبلا ماض، وكانوا ينشدون عالماً أفضل للناس جميعاً. وكانت زوجته واحدة من الرفيقات.

كانت زوجة فارس، وأنا أسير معها على ضفة النهر، تحدثني عن الريف الفلسطيني وعن العائلة. قالت لي: أنا ازور الريف ولا استطيع أن أقيم فيه طويلاً. ثمة تدخلات كثيرة من غير طرف، وثمة عالم محدود جداً، وعندما امكث شهراً كاملاً يجرفني الحنين الى ألمانيا.

وكنت ارى تلك السيدة الجميلة هادئة صامتة تسير منتصبة القامة. ولمّا لم أعد اراها سألت زوجها عن سر اختفائها، فأجاب: لقد طلبت مني أن تغادر وغادرت.

وقال لي الصديق اليساري: لقد ضاقت ذرعاً بحياة الريف على الرغم من أن القرية لا تبعد عن المدينة سوى ذراعين. ولم

أفكر كثيراً في الأمر، لم أفكر في حياة المدينة وفي الجغرافيا وفي الطبقة. لقد تذكرت زوجة فارس، وتذكرت تلك الغزالة القادمة من بلاد الثلج، وقُلتُ له : طلقها.

* * *

كأس نبيذ حزنا على موت الكلب

على غير العادة آثرت ذلك المساء الماطر عدم الذهاب الى مطعم الطلبة في جامعة بون، ووجدت نفسي اسير باتجاه محطة قطار الشوارع الذي استقله، كل مساء، للوصول الى المنزل الذي اقيم فيه. تاركاً خلفي قاعة الاستشراق ومكتبة الجامعة التي تقع مباشرة على نهر الراين وفضلت، ايضا، اختصار الوقت فلم اذهب الى سوق الخضار في وسط المدينة لأشتري منه، كالعادة، ما أراه مناسباً أو ما أوصتني به ربة الأسرة التي اقيم عندها. ولم أنتظر طويلاً، فقد جاء القطار في موعده المحدد بالضبط. تذكرت ما قرأته في مجلة "فلسطين الثورة" عن دقة الألمان وكيف أن المرء يضبط ساعته في أثناء قدوم القطار الذي يصل دائماً في الموعد المحدد له، فاذا ما كان هناك خلل بلغ المسؤولون المسافرين، وأخذت أنظر، باستمرار، الى الساعة، شاعراً بعدم الرضا لهذه العودة المبكرة. كان على أن أظل حتى منتصف الثامنة على ألأقل، خاطبت نفسي" سأظل شرقياً حتى النخاع، وستظل عادة الخجل تلازمني، هنا أيضا، على الرغم من أن العائلة عاملتني منذ اليوم الأول على اني واحد من افرادها، واعطتني، بناء على ذلك، مفتاح المنزل".

والحقيقة أنني فكرت، وأنا في القطار، أن أعود وأزور الطالبة العربية عبير، ولكنني بقيت في القطار حتى المحطة الأقرب للمنزل الذي أقيم فيه، وبعد خمس دقائق من السير على الأقدام وجدت نفسي أمام المنزل. أخرجت المفتاح وأدرته في أكرة الباب ودخلت، القيت على الزوج والزوجة وابنهما تحية المساء فردوا عليها بمثلها، وان كانت ثمة رنة حزن تطغى على أصواتهم، وكانت الزوجة، خلافاً للعادة، حزينة، ولم استفسر ان كان ثمة شيء ما. دخلت الى غرفتي ووضعت الكتب على الطاولة ثم استلقيت على السرير منتظراً الساعة الثامنة للجلوس معا أمام التلفاز والاصغاء الى نشرة الأخبار. وما هي الا لحظات قليلة، واذا بالزوجة تناديني، أصغيت اليها وهي تخبرني انها

وزوجها وابنها في طريقهم الى الطبيب البيطري لمعالجة الكلب، وطلبت مني، إن اتصلت بها امها العجوز التي تقيم في المدينة نفسها، ان أرد على الهاتف وأبلغ أمها أنها ستعود بعد ساعة.

عدت الى سريري وأخذت أتصفح الجريدة التي تحضرها الزوجة كل صباح. وشعرت بحزن مماثل لذلك الحزن الذي لاحظته على محيا الزوجة وهي تتحدث معي. بحثت، في الجريدة، عن أخبار الوطن المحتل وتلك التي تتعلق بالوضع المتأزم في الكويت، ولم أعقب على ما جرى في المنزل كما كنت أفعل، من قبل، دائماً: " هناك، في العالم الثالث، لا يجد الناس طعاماً، وهنا يخصص، في المتاجر، قسم خاص لطعام الكلاب والقطط. هناك يموت العشرات ولا يحزن الناس عليهم كما يحزن الناس هنا على موت كلب". بل أنني غالباً، ما كنت أعطي طفلتي النقود لتلقيا بها في الطاقية التي وضعها صاحب الكر الهزيل على الأرض من أجل أن يطعم نفسه وكره ايضاً. وكنت افرح لفرح الطفلتين، تماماً كما كنت اتابع حركات الناس وهم يتجمعون حول الرجل، كما كانوا يتجمعون جول عازفي الموسيقى القادمين من بلدان أمريكا الجنوبية، وكنت أخاطب زوجتي قائلاً "بالتأكيد سوف يتهم من يفعل هذا في بلادنا بالجنون".

القيت الجريدة جانباً وفكرت في الأمر ثم تذكرت حواراً جرى بيني وبين بعض الطلبة الألمان حول ما يجري في لبنان. وكان الطلبة يناقشون بفتور، كما لو أن شيئاً عادياً هو الذي يحدث، وأذكر أنني، بعد ذلك الحوار، عدت الى غرفتي حزيناً وأنا أهمس: "كأن الناس هنا لا يهمهم من العالم، هناك، الا النفط!". وأخذت مع الأيام اقرأ أخبار الحرب في لبنان كما أقرأ أي خبر آخر في الجريدة واكتفي بتكرارا ما قاله الطلبة الألمان "انها حرب مجنونة" وكنت أهمس: " ولا أدري ان كنت سأصل الى ما وصلت اليه، بخصوص فلسطين، ان طال فيها ما يجري وطالت غربتي ايضا" وآثرت، بعد جلسات عديدة مع الطلبة، الا اتحدث كثيراً عن الانتفاضة التي لم تكن، لهم بعد مدة من الزمن، الشيء

المهم الوحيد في هذه الدنيا، كما كنت أوحي لهم في البداية، آثرت ذلك حتى لا أفقد صداقاتهم ومحاورتهم التي كنت أستفيد منها على غير صعيد.

وعادت الزوجة وزوجها وابنهما، وضعت الجريدة جانباً وخرجت الى الصالة لابلغها ان امها لم تتصل ولأستفسر، ايضا، عن حالة الكلب، وبعد لحظة صمت قالت الزوجة بلهجة فيها قدر كبير من الحزن: لقد آثر الطبيب أن يعطيه ابرة حتى ينفق، فحالته صعبة وان تعافى فلن يعمر طويلاً". وصمت كما صمتوا، وبعد دقائق أخذ زوجها يواسيها ويسألها عن نوع الكلب الذي ستشتريه، غير انها طلبت من زوجها الا يخوص، الآن، في هذا الأمر، وأنها لن تنسى كلبها بهذه السهولة حتى لو حل محله كلب آخر أجمل وأفضل نوعاً. واحسستُ وأنا أصغي اليها أنها تتحدث عن كائن عزيز جداً عليها، وتذكرت حالتها وهي تحدثني، قبل أيام، عن موت جار لها في بناية مجاورة، وهمست في سري: "انها لم تبد يومها حزينة الى هذا الحد، على الرغم من أن الرجل مات ولم يلتفت الى موته الا بعد أيام وبالتحديد حين افتقده أحد معارفه".

وأخذت الزوجة تتحدث عن الكلب منذ اللحظة الأولى التي اقتنته فيها، ذهبت الى البوفيه وأحضرت البومين من الصور خاصين به وأخذت تريني الصور وتشرح لي عن حياته معهم في بلجيكا حيث أقاموا سنوات عديدة، كما أخبرتني عن اقامته معهم في سويسرا التي يسافرون اليها مرتين في العام للاقامة في منزلهما الريفي. وكنت أصغي اليها وأنا أبدو جاداً حزينا كما لو أنني في مأتم شاب في بلادنا. فلقد استطاعت الزوجة، وهي تحدثني عنه، أن تسيطر، من خلال لغتها الحزينة، على مشاعري. وكانت تتساءل عما سيلم بابنتيها حين تسمعان خبر موته، فقد كانت احدى هاتين تسأل عن الكلب، حين تتصل بأمها، كما تسأل عن أي فرد آخر من أفراد العائلة.

وقد لاحظت وأنا أقيم في منزل العائلة، أن الكلب كان يشغل حيزاً من وقت الزوجة. كانت هذه تصحو كل صباح في

السادسة في أيام الشتاء الباردة، وتخرج والكلب ليتمشيا معاً نصف ساعة أو يزيد، تعود بعدها نشطة جداً. وكانت ملاحظتها الأولى، في أثناء حديثها بعد عودتها دون الكلب، تتركز حول مشوار الصباح، فقد خاطبت زوجها قائلة" وماذا سأفعل غداً صباحاً؟". وتابعت حديثها: ومع من سأتحدث في أثناء غيابك عن المنزل؟. لقد كانت، بعد ذهاب زوجها الى العمل، تخرج والكلب ثانية، وكان الكلب الذي يبتعد عنها في أثناء التقائه بكلب آخر يتيح لها فرصة التعرف على الآخرين، وهكذا كانت تتجاذب معهم أطراف الحديث، وقد تعقد مع اصحاب الكلاب الأخرى صداقات جديدة.

ولم أجرؤ، وأنا أصغي الى الكلام، على مخاطبة الزوجة أو زوجها واخبارهم بما يجري عندنا، في الأرض المحتلة، كما لم أطلب منها أن نذهب الى صالة التلفاز لنشاهد نشرة الأخبار المصورة ونعرف ما جد من تطورات على الجبهة العراقية. ولا ادري لماذا شعرت أنني سأبدو مبتذلاً لو أقدمت على فعل ذلك، وبخاصة أنني ايضا كنت اتابع أخبار الأرض المحتلة والعراق للحظات سرعان ما انصرف بعدها الى مشاغلي الخاصة التي كنت أنفق لأجلها الساعات الطويلات، تماما كما كنت أذهب الى كافتيريا الجامعة وأجلس مع الفتيات وأخوض معهن في موضوعات أخرى غير موضوع الحرب، على الرغم من سخونته.

وآثرت الصمت والاصغاء الى كلام العائلة، وأخذت افكر فيما يعنيه الكلب لها، وتذكرت ما قرأته من قصص مختلفة عن الكلاب وعلاقتها بالانسان في الأدبين العالمي والعربي، تذكرت قصة توماس مان وقصة توفيق فياض "الكلب سمور"، وهمست : لعل احترامهم للانسان هو الذي جعلهم يحترمون الكلب ايضاً، أما نحن فلا نحترم الانسان فكيف نحزن على موت الكلب، كما يحزنون". وحين اقترح الزوج أن نشرب النبيذ بهذه المناسبة حزنا لم اتردد في احتسائه، وكنت أفعل ذلك وأنا اراقب الزوجة وهي تصب ما تبقى من الزجاجة في كأسها، ولم تكتف بها فقد

أحضرت زجاجة أخرى وواصلت احتساء النبيذ فيما ذهبت الى غرفتي واستلقيت على سريري مفكراً في أمر الكلب والحرب والوطن وأشياء أخرى.

* * *

هو وزوجته ... واشارة الاستفهام !!

(١)

سألته زوجته وهما في القطار عمّا يدور في رأسه فأجابها، وهو يتابع حركات الصغار خوفا من أن يضيعوا في الزحام: أنت تستقلين الطائرة، وأنا أعود الى المنزل. وأخذ، وهو في صالة المطار، يداعب أطفاله دون أن يفكر في أنه قد لا يراهم ثانية. سلّم عليها وودع أطفاله، وعاد، مع المساء، الى شقته وحيداً. التهم بقايا طعام الأمس، ولم يفكر فيما سيقدم عليه، في قادم الأيام.

(٢)

حين هاتف أهله كالمعتاد عرف منهم أنّ المحكمة تطالبه بالحضور للنظر في أمر علاقته بزوجته التي رفعت عليه قضية تطلب فيها أن يفرق بينها وبين زوجها مجهول مكان الاقامة، الغائب عن أرض الوطن. وحين هاتف أطفاله وردّت عليه أختها أبلغهم بأن لا ضرورة لهذا كله، وأبدى استعداده لدفع المؤخر وبدل أثاث البيت، ولم يسأل عمّا قالوه للحاكم الذي وافق بهذه السرعة على انجاز معاملات الطلاق، وبخاصة أن المدة القانونية للغياب لم تتم. وخمّن : لعلهم قالوا للحاكم أشياء معينة أجازت له اتخاذ القرار، ولم يفكر شخصياً في ما اذا كانت حلفت يميناً على صحة أقوالها، ولذا لم يخطر على باله المثل الشعبي. ولمّا علمت الزوجة باستعداده لتنفيذ ما ينص عليه القرار أخذت تبكي، فيما ابدى أهلها استعدادهم لتأجيل الأمر حتى يعود، ولماقفل راجعاً لم يأتوا.

(٣)

هو الآن يفكر فيما يجري: يوافق الفلسطينيون على الحكم الذاتي الذي رفضوه عام ١٩٧٨ لأنه اقترح في حينه من الاسرائيليين، ولم يعودوا -أي الفلسطينيون- يتهمون من يقبل به اتهامات شتى، على الرغم من ان الأرض أصبحت حبلى بالمستوطنات. وهو الآن أيضا يعجب من سلوك الاسرائيليين الذين يريدون اعادة النظر في اتفاقيات الحكم الذاتي التي تهدد أمن

الدولة. ويتابع كل مساء، نشرات ألأخبار ليصغي الى صوت المذيعين والمذيعات والمراسلين والمراسلات والمحاورين والمحاوَرين - بفتح الواو في الثانية وكسرها في الأولى-، ويمعن النظر في ابتسامات الحكام آملاً أن ينجز، ذات نهار، كتابة دراسة عن الابتسامة وأنواعها ودلالاتها وطولها وقصرها وتأثير عين الكاميرا على طبيعتها. وهو الآن يفكر في أمر الفلسطينيين، وينظر الى الأخ القائد الرمز الذي بدا الاجهاد عليه، لكثرة تنقلاته ولقاءاته، واضحاً. ويعجبه أكثر ما يعجبه ابتسامة (بيل كلينتون) وهدوؤه ووسامته وأناقته ولون بدلته وصحة لغته وجمال زوجته، ويرجو الله أن يبقيه هكذا: مبتسماً، هادئاً، وسيماً، أنيقا، صحيح الجسم مرتفع القامة حتى ينجح، مرة ثانية، في الانتخابات. وهو الآن يصغي الى خطاب السيد رئيس الوزراء الاسرائيلي (ناتنياهو) الذي وجهه للفلسطينيين يدعوهم فيه الى الصبر والتفاؤل حتى يعيش الشعبان معاً في دولة واحدة، جنباً الى جنب، من النهر الى البحر. ولا يلتفت الى ما كتبه علي الجرباوي في جريدة الأيام معبراً عن تشاؤمه من كلام بيبي وعدم جدواه، وهو أيضا لا يابه الى كلام أبيه وشتائم أخوته الذين ما انفكوا منذ خمس سنوات يتساءلون عن موعد خروج ابنهم السجين من السجن. ويتمنى لو كان يملك رقم هاتف السيد رئيس الوزراء ليسأله ان كانت الدولة المنشودة تمكنه من العودة الى بيته في يافا حتى يدافع عنها وعن حق اليهود في العيش أينما ارادوا، من البحر الى النهر، كما يدافعون هم عن هذا الحق. وفكر في فلسطينيي لبنان قليلاً، فمنهم أيضا من يحلم بالعودة الى مسقط رأسه، الى يافا.

(٤)

صباح هذا اليوم ، الأربعاء ١٩٩٦/١٠/١٦، انتابه، وهو يشرب قهوته، حنين مفاجىء الى أطفاله. وفكر في أمر (نتنياهو)، وتساءل عن كتابة اسمه بالعربية كتابة صحيحة، ولكنه لم يشغل نفسه بهذه المشكلة كثيراً، فقد نظر الى المستوطنة التي تقابل الحي

الذي يقيم فيه، وهمس: لعل (نتنياهو) يحلم ايضا برؤية أطفاله الذين يقيمون في هذه المستوطنة، فهو ، ولا شك مثل الحاكم العربي، الأب الحنون لأطفال دولة اسرائيل كلها.

وصباح هذا اليوم فكّر ايضا فيما جرى أمس: ١٩٩٦/١٠/١٥. واسترجع صورة الأخ القائد الرمز وصورة صاحب الجلالة الملك وهما أمام عدسات الكاميرا والفيديو. ولا يدري لماذا تذكر سؤال زوجته وهي تهاتفه ان كان بامكانها العودة، من جديد، لكي يحيا معاً. ولكنه غضّ النظر عن شاشة التلفاز وصورة محمد الوكيل الذي يقرأ أخبار الصباح، غير آبه الى حركات يده وشكل ساعته التي يضعها على معصم يده اليمنى لا اليسرى، ولم يتساءل ايضا عن صديقته كارين التي كانت تذيع، معه، أي مع محمد الوكيل، نشرة أخبار الصباح، فهو منذ زمن لم يتساءل ايضا عن فتاة ألمانية، كان عرفها، يشبه وجهها وجه كارين، وتبدو قصة شعرها أيضا مشابهة لقصة شعر كارين الى حد بعيد.

وصباح هذا اليوم جلس، كعادته، على كرسيه أمام طاولته وبدأ يخربش خربشات الصباح ليقتل الوقت بلا طائل، ذلك أن الناس أخذوا ينشدون ماضياً حاربوا من أجل تجاوزه، ودفعوا مقابل ذلك مئات الشهداء وآلاف الوحدات من الدم الزاكي الصبيب، على رأي الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود الذي يتذكره كلما رأى ابنه الطيب عبد الرحيم، تماماً كما يتذكر يافا كلما رأى المخيم القريب.

لقد خربش مثلا - واعذروا الكاتب لاستخدام هذه الكلمة- ما يلي: طلبنا دولة فحصلنا على عشر هي: دولة أريحا ودولة غزة ودولة نابلس ودولة جنين ودولة رام الله ودولة طولكرم ودولة قلقيلية ودولة بيت لحم ودولة الخليل التي هي في طريقها للاستقلال ودولة أبي ديس عاصمة الدولة الفلسطينية المستقلة باذن الله.

وخربش ايضا: من سيبايع اليوم الآخر ملكاً؟ وتذكر زميلاً له كان زاره ذات نهار ففهم منه مقطعاً شعرياً لمحمود درويش فهما خاطئاً، وظنّ أن الأب في ألأسطر الشعرية الناصة:

" يا أبي! هل أنت ابي؟

أم تراني صِرتُ ابناً للصليب الأحمر؟"

هو الأب البيولوجي لا الأب الروحي، دون أن يتعب نفسه في معرفة طبيعة المتكلم في النص الذي يعبر، أساساً، عن أنا جمعية، هي أنا اللاجئين، لا عن أنا فردية هي أنا محمود درويش فقط.

وخربش ايضا: الحمار حمار ولو بين الألمان نما !!.

ثم توقف عن الكتابة. وترك نفسه تستعيد اياماً أنفقها في ألمانيا. حاور، مرة، تركياً لا يجيد الألمانية، بالاشارات، على الرغم من أن التركي أنفق عشرين عاماً هناك يتجول في الشوارع وحيداً، منتظراً زوجته حتى تفرغ من خدمتها في تنظيف المستشفى، ليذهبا معاً الى السوبرماركت وليشتريا بعض أقلام هدية لأفراد أتراك، أو ليتمشيا، قليلاً، على ضفة النهر حتى يراقبا البط وهو يسبح في النهر، البط الذي يرفض، كما قالت المرأة السورية التي أقامت في مدينة (توبنغن)، أكل الخبز الذي تعجنه بيديها، امّا لأنه خبز رخيص وصناعة عربية محلية، أو لأنه خبز أجانب، على الرغم من أنّ المرأة السورية لم تختلط بالألمان كثيراً.

وخربش من جديد: من سيكتب رواية العبث الفلسطيني. وتوقف وهو يصغي الى صراخ أبيه الذي ظل سنوات طويلة يحلم بانتصار العرب والعودة الى يافا، وكان هذا الحلم يحول بينه وبين شراء قطعة أرض ليقيم عليها بعيداً عن ضجيج المخيم ومشاكله التي لم تكن تفاقمت كما هي عليه الآن.

وحاول، مثلاً، أن يربط، وهو يفكر، بين رحلات كيسنجر المكوكية ومسرحية غسان كنفاني " الباب"، كما حاول أن يربط بين رحلات السيد الرئيس ياسر عرفات المتكررة الى مصر ودول

العالم وبين سلوك سيزيف الذي فرضته عليه الآلهة حين أمرته بأن يرفع الصخرة الى قمة الجبل، وأن يدحرجها، من هناك الى أسفل الوادي ليرفعها من جديد وليدحرجها ايضا من جديد. وفكر، مثلاً، في أن يعود الى الصحف المحلية الصادرة منذ عام ١٩٨٢ ليحصي عدد زيارات الرئيس الى القاهرة التي يرغب هو شخصياً في زيارتها لمرة واحدة ليشاهد الأهرام والنيل وليقرأ الفاتحة على روح أستاذه عبد الحميد سند الجندي الذي كان يحب طلبة الجامعة الأردنية مثل الملوخية.

(٥)

" لقد مللت السؤال" خربش وتابع "لماذا طلقته زوجته؟" واضاف " ولماذا لا يريد ارجاعها؟" وكتب ايضا: " دائماً يسألونني، ألا تريد أن تتزوج؟". وكان، من قبل، يجيب: حين يتزوج محمود درويش أولاً وأكرم هنية ثانيا. وقد فعلها هنية أولاً ولم يفعلها درويش الذي قابل مراسل التلفزيون الاسرائيلي أمه قبل عامين وسألها ان كانت ستضغط عليه من أجل الزواج، فأجابت: هوكبير وهو حر.

وصباح هذا اليوم رأى أطفاله شهداء دفعوا ثمناً لا ذنب لهم فيه. وتساءل من المحق الزوجة أم نتنياهو، الزوج أم عرفات، ومن المسؤول حقاً عن الاشتباكات الأخيرة التي تفجرت قبل ثلاثة أسابيع يوم بدأت معركة النفق.

(٦)

أخيراً، أنا عادل الأسطة، فكرت في أمر الزوج والزوجة والأطفال، وفي أمر نتنياهو والملك حسين وأبي عمار وكلينتون والسيدات الفاضلات لهؤلاء: هيلاري وسهى ونور وسارة، وقررت أن أدعوهم لتناول العشاء في منزلي لنعقد جميعاً صلحاً أبدياً، ولكنني افقت من حلمي على صوت أبي عمار يقرأ ورقة ابلغ فيها عن خطة الاسرائيليين بخصوص تقسيم مدينة الخليل الى مدينتين، وعليه فقد تراجعت عن قراري، لأنني رأيت أن المشكلة الحقيقية تكمن في محمود درويش وعادل الأسطة معا، هذان اللذان

لا يريدان أن يتزوجا، وهذان اللذان لا تخلو كتابتهما أحياناً من خطأ ما. فديوان محمود درويش الأخير " لماذا تركت الحصان وحيداً" خلا من علامة السؤال، وقد استفزني هذا كثيراً لدرجة أنني قلت هامساً: اللعنة على محمود درويش، ونظرت حولي آملاً ألا يكون سمعني أحد، خائفاً من نقل الكلام له، وخائفاً أيضا من أن يقاضيني أمام المحكمة، ثم تراجعت وآثرت أن ألعن نفسي فقلت: اللعنة علي ... اللعنة على عادل الأسطة المسؤول الأول والأخير عن مشاكله ومشاكل العرب والاسرائيليين، هذا الذي ما فتيء يذكرنا بماضينا منذ مؤتمر اريحا الأول الى مؤتمر اريحا الثاني، ومنذ مجازر الخليل عام ١٩٢٧ الى مجازر الخليل عام ١٩٩٤.

١٩٩٦/١٠/١٦